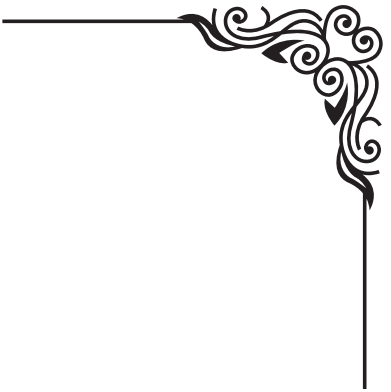

نور اليقين زروال

# لماذا

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1441 هـ - 2019 م
ردمك /(ISBN): 978-9947-79-536-1
التوزيع الدولي للكتاب: مصر، لبنان، العراق، الأردن، السودان.

اسم العمل: لماذا.
اسم المؤلف: نور اليقين زروال.
المدقق اللغوي: محمد صديق بوهند.
تصميم الغلاف: لطفي عابر.
المدير العام / سميرة منصوري.
اخراج: سيف الدين.ل.

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 75 65 85 033 / 50 28 76 0666

بلومانيا للنشر والتوزيع
المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

نور اليقين زروال

# لماذا

المثقف
للنشر والتوزيع

الإهداء
إلى كل من آمن بي وبروحي

# الفصل الأول

«سنلْتقي...سنلتقي يوْماً ما ! سنكون أحلى عائلة وسنرتدي فساتين السّعادة، ونتزين بعقاقير القدر الجميلة، وستكونين أجمل سيّدة بفستانك الأسود ...أنا أعدك بذلك»

تلك كانت رسالتي لأمّي قبل عشر سنوات... في زمن القهر والظّلم... في زمنٍ كان بصيصُ الأمل منعدماً... في زمنٍ كان سيف الاستعمار موضوعا على رقبتي منتظرًا أيّ حركة مني ليقضي عليَّ... في وقت لزمت الهدوء والتزمت وضعيّةً واحدةً، خوفا من فعل صاحب ذلك السيْف القاهر.

لم أؤمن يوما بوجود شعور الكره.

لطالما أحبْتُ كل ما في الوجود، أحبْت الخالق ومخلوقاته، الجامد والحي، أحبْتُ كل ما وقعت عليه عيناي، إلى أن اصطدمتُ بحائط الواقع المرُّ الّذي جعل ذاكرتي تنزف ذكرياتٍ جارحةً تصب في منعطفات قلبي المُرهَفة.

كل ما أذكره هو أنّني عشت أياما صعبة في متاهة حياتي البائسة، تارة أسأل الحياة عن ذنبي.. عن سبب تواجدي في

المكان الخطأ، وتارة أستسلم للبكاء وأصعد ناصيته معلنةً للأسر أنّني يئست...

رفع القاضي صوته مُعلِناً نهاية الجلسة الأولى والأخيرة، وكأنّه بخّر النّصف الأوّل من بحر ذاكرتي، أحسست بأنّها أصبحت أخف عندما وطِأت قدماي باب المحكمة إلى الخارج.

-هل أنت سعيدة؟

هزّت رأسها إيجاباً وتقدّمتني لتفتح باب السيارة وتجلس بهدوءٍ في المقعد الخلفيّ، كنت أنظر إليها بعينين شاردتين أتفحّص ملامحها... ما كلّ هذا الهدوء؟ هل هو علامة رِضا؟ أم أنّها تعلن انهيارِها بسكوت قارس كبرد ديسمبر، تقدّمت خطوتين إلى الأمام وركِبتُ السيّارة بجانِبها

_ أمّي هل أنت بخير؟

_نعم...

_اصرخي إذا ...تمرّدي ...حلّقي عاليا، أعلني حرّيتك.

رفعتْ عينَيْها إليّ بحزنٍ وكأنّها تحاول إرسال ما بقلبها من مسودات امرأة عربية في رواية شرقية بقلم أجنبي... لكنّها لا تستطيع البوح، لطالما عهدت أمي صامتة محاربةً لسانَها في كل مرة إن حدث وحاول إخراج دروع الدّفاع، هذا ما جعلها

تعيش حالة نفسية مضطربة، والآن هي لا تكاد تصدّق أنّها بعد كل هذا العمر هي حّرة... حروف تلك الكلمة وحدها تُعجِز لسانها عن النطْق، وفي كل مرة أذكرها على لساني ترفع عينيْها باتجاهي وكأنّها تقول: انتظرتك طويلا لتمدّي يدي بالمساعدة كي أخرج من بئر الظّلمات هذا...لكن بعد كم من الوقت؟ اليوم أمي تلومني لأول مرّة لأنني فتاة... لأني أخذت وقتا طويلا كي أرجع لها مسلّحة بذخيرة تكفي لقتل يهود فلسطين، ولكن ما ذنبي أنا؟

تقدّمت بنا السيارة نحو المدينة وكأنّها تتقّدم نحو منعطف جديد لحياة ابنة جَرَتْ سنين عمرها خلف إثبات صدق أمّها التّي بلغت من العمر ما يكفي لبناء دولة عظيمة حول رجل ظالم يقف على عرش الجهل والاستبداد عمل على استعمار قلبها وتعذيب أسرى ذاكرتها والتنكيل بها دون أن تفتح ثغرها في الدّفاع عما تملكه من حق

- هدى؟

بعد عشر سنوات، لأوّل مرّة أسمع أمي وهي تنادي اسمي بكلّ ذلك الحنان. كانت الدّهشة واضحة على معالم وجهي وتفاصيله حينما نقلت نظري تجاهها

- نعم أمي؟

- اطلبي من السائق أن يتوقف هنا، أريد أن أرى هذا المنظر

فهم السائق ما يجب تلبيته بإيماءة منّي عندها أوقفَ السيّارة أمام المكان الذّي اشتهاه قلب أمّي، كانت الفرحة تدغدغ قلبي وأنا أرى أمّي تتحسّن شيئا فشيئاً. توغلت في متاهة ذاكرتي بنظراتها المثبتّة في السّماء الرّماديّة التّي على وشك البكاء لامرأة قطّع بقايا أشلائها القدرُ ورمى بها في مستنقع الظّلم

- أمّي ...؟ ألن نذهب ...؟

أخرجتُ سائل كلماتي من تحت أبواب شفاهي بصعوبة، خوفا من تعكّر رائق كلس مزاجها، ثم ما لبثتُ أنتظر ردّها حتّى غرقت مرّة أخرى في بحر الأحداث. أفاقني صوت أمي من غيبوبة أفكاري

- انتظري قليلا يا هدى ... أنا أُناجِي ربّي، لا يجوز مقاطعتي، دعيني أختلي به قليلا.

كانت تترك مجال سكوت بين جملها التّي ، فوجئتُ بردّها...لِمَ هذا المكان بالذّات؟ وحدها الأماكن تلعب على أوتار الذاكرة لتعود بنا إلى السيناريو القديم الذّي عشناه معهم. لكن من أين لامرأةٍ لازمت البيت طوال حياتها تحت ضغط

المجتمع الذي يدّعي بأنّ المرأة كائن ضعيف لا عمل له سوى تحمّل مسؤوليّة أربع جدران أن تعرف مكاناً كهذاَ ...لم أتجرأ على سؤالِها لكن عينيَّ ظلتا مثبّتتيْن على وجهِهَا باستمرار منتظرةً إشارة وداع لذلك المكان.

أشارت إليَّ بالذهاب وتقدّمتني راكِبةً السيّارة في المقعد الخلفي كالعادة. وصلنا إلى البيت بعدما انتهى اليوم الذّي انتظرناه سويّة قرابة العشر سنوات حيث تحرّرنا أخيرا منهم بكسب الجزء الأوّل من القضيّة ...قضية حياتنا. الآن لم نعد نخاف منهم فالطّابة في جهتنا، سنرمي بها أينما نشاء ووقتما نشاء... قابلتنا عائشة ببهجة وابتسامة صنعتها لهفتها لانتظار سماع الخبر منّي

- هَاذا وينْ تجيوْ؟ ستنيتكمْ بزافْ

آهٍ منك يا عائشة... وهل تعرفين للانتظار طعما؟ أنت التّي انتظرت سويْعاتٍ قليلة حتى عودتنا، ماذا لو لعب بك مايسْترو القدر وأوقع بك في بحيرة دموع أمّي وانتظرتِ ما وزّعَ عليْك من عُمْرٍ

- أمّي تعبَتْ كثيرا اليوْم، دعيها تسترِحْ قليلاً

أجابت كعادتها ممازِحةً كلماتي

- لكنّني مشتاقةٌ لسَماع الحكمِ الذي صدرَ اليوْم

أجبت بنظرةٍ ثاقبة تبّتُهَا نحو لمْع عيْنيْهَا لأنّني لاحظت حماسها المفرط الذي تجسّد على شكل ابتسامة ظهر من خلالها بياض أسنانها، يبدو أنّها علمت بالأمر من مصدر ما، انسحبتْ بهدوء مطأطئة الرّأْس، خائِبَةَ الأفْكار.

- عُذْراً يا عائشة على قسْوَتِي معكِ، فالحياةُ حضُنَت يتْمي المُزيّف في ظروف تملؤُهَا القسْوَة والعذاب النّفْسي.

قلْت ذلك في قرارة نفْسي واستدرْتُ إلى أمّي التّي ما كانت تتابعنا وإنّمَا كانت سارِحَةَ بخيالِهَا في الأفُقِ البَعيد، لم ألُمْها يوماً على عدم اهتمامها بثرثرتنا لأنّني أعلم أنّها حاضِرةٌ بجثّتها فقط. استدرتُ مصطنِعَةً ابتسامة شاحبة على شفتيَّ الرّقيقتيْن اتّجاهَ أمّي لِأُمْسكَ بيدٍ واحِدة يدَها اليُمْنى وأضع اليدّ الأخرى علَى ظهْرِهَا، وَكأنّني أُريدُ أن أحْميَهَا من بحرِ الظّلام دافِعةً إيّاها نحْو برّ الأمان ولو كلّف ذلك سحْق جسدي من طرف قرشِ الاستبداد والظّلم والفَساد.

- اجْلسي هُنا قليلاً، سأُحضِرُ لكِ قهوة سادة

كنت أعرِفُ طِباع أمّي جيّداً وأحفظُ تفاصيل تصرّفاتِهاَ، فهيَ بعد كلّ حدث فرحٍ كان أو قرحٍ تحبّ أن تشربَ قهوة لكيْ تهدِّأ

أعصابها... تلك الأعصاب التّي أعلنت جيوشها حرْباً في رأسِهاَ كانت غنيمتها صحّة أمّي المفقودة منذ عشر سنواتٍ مضت.

تقدّمتُ نحوَهاَ بخطُواتٍ هادئة أحمِلُ كوباً من القهوة السّاخنة في يوم بكت فيه السّماء لِوَقع ما تعاطفت معها أثناء كل ذلك الوقت، وجدْتها شاردة الأفكار قرب نافذةٍ تنظر إلى خارجها.

- أحلى قهوة لأحلى سيّدة.

قلت تلك الكلمات ممازحةً إياها كي أنقذها من زوبعة أفكارها غير المتناهية

- شكراً حبيبتي

حاوَلتْ رسْمَ ابتسامة على ثغرِهاَ الذّي ما عرَف يبتسم منذ زمن طويل وكأنّها تسترجع ما ضاع منها من فرح وهناء.

- هدى إن حدث لي مكروه فعليك بعائشة...

انتفضت فجأةً من مكاني ووضعتُ يدي على شفتيْهاَ الشّاحبتيْن وقلتُ بجدّيّةٍ صارمة.

- لن أقبل أبداً سماع حديثٍ كهذاَ في بيتي. أتسمعينَ ما أقول؟ لن يحدثُ لكِ شيءٌ وأنا هناَ ...مفهوم؟ أناَ هُنا يا أمّي...

هزّت رأْسَهاَ إيجاباً كعادتها ثمّ اتّكأت على سريرها بوضعيّة نبّأتني بها عن رغبتها في النومِ. وقفتُ بهدوء منسحبةً نحو

البابِ بخُطواتٍ هادئة لأغلق الباب خلفي بعدما طرأ على رأسي أمرٌ مهمّ رغبت منذ زمن في الاهتمام به وتسويّته. وجدت نفسي أمام باب غرفة عائشة، تأملته قليلا ثم بادرت بطرقات خفيفة متتالية وكأنّني أمّهّدُ لموضوعٍ جدّيٍّ بيننا

- ادخُل

فتحت الباب برفق ودخلت بجسدي داخل الغرفة حيث وقعت عيناي عليها وهي تنظر إليّ بحنان وألفة وكأنّها تريد قول شيء مهمٍّ وكأنّني استقبلت ما دفعت به سهام عينيْها اتجاه قلبي لتستقرّ على جدرانه آبيةً الخضوع لقوانينهِ الصّارمة

- هدى...

تلعثم لسانها حينماَ أرادت فكّ السّهام من الجدران لكنّها لم تتحمّل قوتّها، فغيّرت نظراتي إليْها بكلّ اهتمامٍ وتركيزٍ شديديْن ممزوجةً ببعض قرصات الحنان والحب

- تكلّمي يا عائشة...

دقّ قلبي دقّةً قويّة قبل أن تفتح ثغرها لتخلّصني من سهام الشكّ التي ما لبثت تمشي سمومُها في شريان جسدي يوماً بعد يوم، كنت أعلم ما ستقوله عائشة جيّداً لكنّني فضلت أن أسمعهُ منها كي أحسم الشك الذّي أعيشه بسببها «أَنَا وَاقِعَةٌ

فِي الحُبِّ يَا أُخْتِي»

من وقع الصّدمة لم أتمكّن من تحريك ضرس الألم لأزيله من فم قلبي...

كان ذلك مؤلِماً حدّ الموت، لم يسبق لي أن تألّمت من ضربات سوط الحياة المتغطْرس كما شعرتُ بها اليوم تحت سقف الحقيقة. لِمَ يا سيدي الحُبّ؟ هل تسلَلْتَ لتنتقم منّي وسط بيتي ومع أقْرب النّاس إليّ؟ أنا التّي حاربتك طِوال حياتي كي لا تستولي على دهاليزِ قلبي لتأتيَ اليوم مسلّحاً بأقوى معدّات الألم لتسقط بي أرضاً...

أطْبقْتُ فمي صامتةً لحظاتٍ عديدةً حيثُ خيّمَ الصمتُ على مشارف نهر القرار، ثمّ وقفت باتّجاه البابِ مطأطأة الرأس والكلمات والأفكار لِأتعثّر بصوْتٍ بريء اعتدْتُ سماع ممازحته ومراوغاته لي

- قولي شيئاً يا هدى ...لا تتركي أختكِ تلعب فوق نار الانتظار لوهمٍ أنت سيّدة قراره

نطقت شفتاها تلك الكلمات بصعوبة وشرارة الحزن تندلع من تلك العينين العسليّتين أين أحسستُ بأن قلبي سيخرجُ ليضمّها إليه ويحميَها من سموم رياح القدر المميتة. لأحاوِلَ

أخيراَ وبصعوبة امرأة تقود سفينةً إلى المجهول لحسم القرار

- عائشة ...لن أخفي عليك أنّني أعرف سرّك الذّي أخفيته عنّي هذه الفترة الأخيرة، ولن أخفي عنك علمي بلقاءاتك السريّة معه، كنت فقط أنتظر اعترافك الذي سيؤكّد ما علمت به مؤَخراً...

ثم أضفت بعدما وضعتُ كفي على رأسها ومسحت شعرها

- ثمّ لا صلاحيّة لي كي أمنعك... هل تساءلتِ يوما لِمَ لَم أرتبط قبل زواجي من مصطفى؟ لِمَ لمْ أُحِبَّ شخصاً قبله؟ لم رفضت كلّ العروض التّي تلقيتها في القسم النّهائي؟ لأنّني أؤمن بأمر واحد وهو أنّ الله عزّ وجلّ قد خلق لكل إنسان شخصا ستكون نهايته معه فلم أتعب نفسي وأدخل في علاقات غير شرعية مدّعية أنّه الحب ومشتقّاته من إعجاب وعشق وهيام... لم يا عائشة؟ ثمّ إنّ ربط قلبك برجل في سن مبكّرة كسنّك سيؤول بك إلى التّضحية بأمور كثيرة باسم الحب...الله خلق الحب ليكون شيئا جميلا وليس لنضحّي بسعادتنا من أجله... بل خلقه ليجعلنا سعداء وليس ليجعل الحزن والعذاب عنواننا... صدّقيني لو كان ما تفعلينه صحيحا لما كانت لقاءاتكما في السّر

ثمّ أضفت بصعوبة

- هل تذكرين مواعيدي الغراميّة مع مصطفى؟ هل كنت أخفي الأمر عن أمّي أو عنك؟ ببساطة لأنّه كان زوجي عرفيّا أمام أحكام الشّرع وأمام الله عزّ وجل... لذلك لم يكن هناك داعٍ للقاءات سرّية معه، أليس كذلك؟

قلت تلك الكلمات ودلفت بجسدي خارج الغرفة وأنا أفكّرُ في كلماتي التّي قلتها لها، هل كان ذلك ما يجب أن أقوله حقّا؟ هل أثّرتُ في قرارها؟

كانت الساعة تشير إلى السّابعة مساءاً حين تفقّدت غرفة أمّي، وجدتها غارقة في النوم دون أن تتناول قليلا من العشاء الذي طلبته في الطريق قبل وصولنا من أقرب مطعم بجوار منزلنا. حتّى عائشة أضربت عن الطعام. وجدت نفسي وحيدة في المطبخ أتناول طعاماً لم أحس بطعمه لفرط التفكير في أمور كثيرة تختلج دماغي في كل لحظة، وعندما أنهيت خرجتُ مسرعةً بخطوات هارب من سجن العدالة مباشرة إلى غرفتي التّي تقع بجوار غرفة أمّي في مقدّمة البهو أمام الباب الذّي يؤدّي إلى الحديقة الصغيرة خلف منزلنا التّي لطالما اهتمّت بها أمّي لأنّها وجدت فيها ما يزيل قليلاً الهمّ الذّي

تعيشه، كانت تقول دائماً بأنّ الأزهار كائناتٌ لطيفة و حسّاسةٌ تماماً مثلهاَ.. يحدثُ للإنسان أن يعشق الأمور التّي تشبهه حتّى لو لمْ تتجسّد على شكل شخصٍ من بني جنسه. دخلت غرفتي التّي باتت موطني الوحيد الذّي يحميني من قساوة هذا العالم، تلك الغرفة التّي لا تحمل بين طيّاتها سوى سرير بسيط بساطةَ دهان الجدران الصّفراء فاقعة اللّون التّي طالما وعدت بها تلك الفتاة التّي تسكن بداخلي ما إن نجحت مشاريعي، وخزانة جميلة متوسطة الحجم بنفس لون الجدران تضمّ ملابسي وبعضاً من ذكريات قديمة لم أتجرّأ على تفحّصِهاَ منذ زمن طويل لأنّها توقد نار شهوةٍ قديمة خمدت بفعل رياح القد. وضعت مفاتيحي على طاولة أضعها عادةً بالقرب من سريري لأضع عليها كتباً أستأنس بِها ليْلاً، ثمّ تأمّلتُ مليّاً في المرآة المُعلّقة في مدخل الغرفة، رأيْتُ الكثيرَ مِمَّا يجب قوله مخزّناً داخل عينين عسليّتين تحيط بهما هالات وضعَتْها مساحيق الأقدار القاسية باللّوْن الأسود الرّماديِّ، حاولت إغلاقهما خوفاً من تسريب ما بقيَ بِهِمَا من مخزونات.

استسلمتُ بجسدي إلى حضنِ السّريرِ لِكَيْ يقودَني إلى عالم السّواد... لكنّني كُنْت ثقيلة بأفكاري التّي شنّت حرْباً

قويّةً في رأسي الذّي أعلن استسلامه وتركني أحتضر في عالم لا عنوان له...

ظلّت عيناي تنظُران إلى السّقف الأصفر طوال اللّيل إلى أن تسلّلَ صوت الأذان إلى أذنيّ، ويا له من صوتٍ جميل... تغلغل داخل ذاكرتي وكأنّهُ ينظّفُ ما بهاَ من وحلِ الكآبات وحوّلهاَ من مستنقع إلى واحةٍ جميلةٍ جعلت قدميَّ تتحرّكان من سكونهما مُتّجهتين نحو مائها الطّاهر لكي أقوم بأوّل خطوةٍ لأداء الصّلاة. أكملت الوضوء واستدرتُ بسرعة كي لا أُفوِّتَ عليَّ ذلك الشُّعور الطّاهر حينما تقوم بأداء ركن في وقته بالضبط، بالسّاعة والدّقيقة والثّانية، وضعت حجاباً وأقمت السّجادة نحو القِبلة ثمّ كبّرتُ لأبدأ أداء فرضي، كان ذلك أجمل شعورٍ أحسستُ به... راحتْ ذاكرتي تفرغُ شيئاً فشيئاً وأصبحتْ مشاكل الدّنيا فانية أمام عرش ربّي وعظمته... رُحتُ أتخيّلُ أنّ ربّي يشفعُ لي مع كلّ ركعة أتمِمُهاَ. من شدّة التّأثّر بكيْتُ على سجّادتي وأنا ساجدة أتضرّعُ إلى خالقي «سبحان الله والحمد لله والله أكبر... ربِّ إنّي أرجوك مغفرة وهداية ...يا ربّي إنْ رأيتني أبتعدُ عنْكَ فردّني إليْكَ ردّاً جميلا...»

اندفعت وديان الدّموع من منبعٍ في جبال عينيَّ تجرفان

الماء بسرعة نحو نهر وجنتيَّ وأنا أردّدُ ذلكَ الدّعاء مرّات عديدة وإذ بي أحسُّ بباب الغرفة يندفع برفق، مسحتُ عينيَّ بظهر كفّي. كان وقع تلك الأقدام مألوفاً على قلبي... تلك الخطوات أعرفها.

# الفصل الثاني

استدرتُ بسرعة لأتأكّد ما إنْ لم أخطئ في تمييز الخطوات، رأيتها واقفة في مقدّمة الغرفة تنظر بنظرات مستقرّة على سجّادتي وحجابي ثمَّ تهيّأتْ لتفتحَ ثغرها وترسلَ إليَّ طرد كلماتها المغلّف بصوتها الحنون الذّي أحبُّ وقع صداه على قلبي كثيراً

- هدى...؟ هل أنت مستيقظة حبيبتي؟

أشرتُ برأسي إيجاباً ثمَّ وقفتُ ودفعتُ بقدميَّ نحوها كي أقبّلها على جبهةٍ تحمِلُ بينَ طيّات تجاعيدِها قِصَصاً لنْ تروَى أبداً، عانقتها وكأنّني فتاة صغيرةٌ وقلتُ لها

- كم اشتقتُ إلى الأيّامِ الخوالي حيثُ كنتِ توقظينني باكراً لأذهبَ إلى الثّانوية بإلحاحٍ متواصل... أيُّ صبرٍ تحملْنَه أنتنَّ الأمّهات

ابتسمت بحنان وضغطت على جسدي وقالت:

- لأنّكم أنتم أبناؤنا كنتم في وقت ما تحتلّون مكانة في قلب رحمٍ هو جزءٌ منّا.

ثمّ أضافت:

- هيّا إنّ الوقت يمضي، البسي ثيابك والحقي بي إلى المطبخ لِأُعدَّ لكِ فطوراً أعرف أنّك مشتاقة له.

ابتسمتُ وقبّلتُ رأسَهاَ، ثمّ بعدماَ دلفت بجسدِهاَ خارج الغرفة أوصدت الباب خلفها ووقفت وراءه أمسِكُ قلبي خوفاً من خروجه من قفصي الصّدري، لم أكن أعلم ما عليّ الشّعور به في وضعيّةٍ كهذه. عائشة وأمّي هما نبض حياتي... هما كلّ ما أملك في هذا العالم، لا أفكّرُ إلاّ في مصلحتهما فهما نبض حياتي الوحيد، من جهة كنتُ أفكّر في مستقبل أُختي وفي القادم من مفاجآت الدُّنيا، ومن جهة أخرى أمّي التّي لا أكادُ أفهم طبيعتها بعد فراق دامَ سنوات عديدة... وكأنّني فقدتُ معرفتي الحقيقيّة بها أو لربما كان ابتعادي عنها سبباً في خلق مسافة عاطفية بيننا، لم تعد أمي كما عهدتها بِطّلتها المشرقة وحيويتها المفعمة وعفويتها الدائمة.

أيقظني صوت السيّارات في الشارع الذّي تطل عليه نافذة غرفتي من تفكيرٍ عميق ثمّ تنبّهت أنّه يوم حرّ لي لا عمل فيه، تساءلت عن إشارة أمي بخصوص الوقت... لم أُتعب نفسي كثيراً بالتّفكير، استعددت ثم تدحرجتُ بأفكاري على السلالم

لأجد نفسي أمام باب المطبخ أنظرُ إلى أمّي وأنا أسألها:

_ ما مشروعك اليوم؟

ابتسمت ودفعت الفطور نحوي، المتمثّل في كأس حليب ممزوج بقليل من القهوة مع ثلاث ملاعق سكر كما أحبّها، وقالت:

- عمّك الظّاهر عرضني أنا ونتِ اليوم الظّهارة تع وليد ابنه.

لم أعر اهتماما لختان حفيد عمّي الظّاهر ولا لدعوته لنا وهذا ما جعلها تفحمني بعد سؤالي لها :

- أين هي عائشة؟

- من يدري؟...

- أمّا يخي قتلك متزيديش تخليها تخرج وحدها هذاك راه يدور هنا

وكأنّني أنفيه من حياتنا بمناداته «هذاك»، وهذا لأنّني كنت أعرف أنّ اسم أبي يشكّل عقدة لأمّي ويعكّر مزاجها الجميل هذا الذّي اشتقت إلى التماسه. لم تردّ بشيءٍ غير:

-استعدّي سننطلق بعد نصف ساعة من الآن.

لا أحبّ الذّهاب إلى حفلات كهذه لكنّني عاجزة عن الرّفض أمام أمّي التّي أراها تتحسّن وتعيد تضييق الفوهة العاطفيّة

التّي ثقبها القدر بيننا، تبعتها من غرفة إلى أخرى وأنا أراها تولد من جديد بحسنها وتفاؤلها، كانت تطلب منّي إحضار العقد الذّهبيّ والحزام والسّوار والفستان التّقليدي والكعب الذّي يتماشى معه طبقا للموضة، ومع كلّ قطعة تسرد لي تفاصيل اقتنائها لها وأنا أتابع شغفها بتلك التّفاصيل بابتسامة لا تفارق ثغري أو بـ»الله يبارك» ومن ثمّ أصبحت النصف ساعة، ساعة ونصف... بينما أنا أغلق أزرار فستانها استدارت لي فجأة بنظرات غريبة وقالت:

- هدى لم لا تتأنقين قليلاً يا بنيتي؟

كان لوقع تلك الكلمات أثر على أنوثتي التّي فقدتها منذ زمن بعيد... أنوثتي التّي أخذها معه...

ثمّ أضافت ملحّة:

- ضعي قليلا من المساحيق وارتدي فستانا من تلك الفساتين الجميلة التّي أحضرت لك يوم خطوبتك

أيّ مساحيق يا أمّي تخفي تفاصيل قصّة حياتي بين طيّات وجهي الذّي يفشي كل أسراره المخزّنة بين عينيّ

- حسنا

وضعتُ كل ما أرادت من مساحيق وارتديتُ ما أعجبها من

قطع فضّةٍ وذهبٍ، كنت أتنازل في كلّ مرّة خوفا من تدهور حالتها.

ركبنا السيّارة متّجهين نحو منزل عمّي الطّاهر الذّي يحب عائلتي منذ أن لامست الحياة أضلعي. هو شخص جدّ طيّب، كان صديق طفولة والدي وأخاه الذّي ولدته له الحياة، لطالما حدّثني عن مغامراته معه والمساعدة التّي قدّمها له كي يصبح بكل هذه القوّة والنّفوذ، وكان يختم حديثه في كل مرّة: «لذلك أنا أساندك يا ابنتي الآن... أنا أرجع دين والدك، لا تعتقدي يوما بأنّك عبئ عليّ»

عمّي الطّاهر هو الذّي ساعدني في فتح شركتي منذ سنتين مضتا، أذكر أنّه اهتمّ بكل الإجراءات اللّازمة كما أنّه دعّمني ماليا مدّعيا أنّه يثق فيما استثمر ماله. وبفضله كسبت قضية البيت التّي أراد عمّي من خلالها سلبنا المنزل الوحيد الذّي نملكه بحكم أنّه ورث من جدّي إلى جميع العائلة.

بعد برهة توقّفت السيّارة أمام منزل كبير جميل وكأنّه قصر ملك عباسيّ أو حاكم بريطاني، دفعت برجلي اليمنى إلى الأرض ثمّ وقفت باستقرار بعد دفع الرّجل اليسرى بكلّ هدوء أشاهد هذا البيت وأقارنه بالذّي في ذاكرتي المحتفظة به منذ

زمن طويل، لم أزر البيت منذ أن جئت بحكم الظّروف، آه كيف يجعل المال الأرض جنّة ولكن هل يجعل من البشر ملائكة؟ وكأنّني أحاول قتل الوقت كي لا تلحق بي عاصفة لتجعلني أتلاشى ثمّ استدرت كي أمسك يد أمّي مساعدة إياها في الهبوط من المركبة التّي انطلقت لتعود أدراجها من حيث أتت.

تقدّمنا نحو الباب لكي ندخل. همست لي بشفتين ترتجفان:

- ماذا لو كان هنا؟

حاولت استعادة أنفاسي التّي فقدتُ جرّاء ما قالته:

- وإن يكن؟ تجاهليه

كنت أحاول أن أجعل من طريقة نطق كلماتي مصدر قوّة لأمّي كي لا تتحسّس الخوف بقربي وإذا بالباب يفتح دون سابق إنذار، مرّ وقت طويل... إنها بشرى.

دفعت الباب بقوّة والتصقت بجسدي وهي تقبّلني وتصرخ عاليا:

- هاقد أتيت أخيرا...

ثمّ أضافت مازحة:

- كيف الحال يا سيّدة هدى

دفعتها برفق وقرصتها من خديها وأنا أبتسم:

- لا زلت كما أعرفك يا دكتورة بشرى

ضحكت مليّا ثمّ نقلت اهتمامها إلى أمّي التّي التزمت الهدوء وهي تنظر إلينا بحنان، تقدّمت نحوها مقبّلة خدّيها وجبهتها وهي تعتذر:

- اسمحيلي يا خالتي، توحّشت هدى بزّاف

- معليهش يا بنتي، فمن لا يشتاق لهدى

بشرى... صديقة طفولتي وشريكتي في أيام الدراسة، كانت يدي اليمنى التّي أشرب وآكل بها، آه كم اشتاقت أذناي إلى سماع دعاباتها وعيناي لرؤية جمَال أخّاذ في شكلٍ دائريٍّ لعينين سوداويتين يعلوهما حاجبان مرسومان بيد بيكاسو مع أنف صغير يعلو احمرار ثغرٍ صغيرٍ يحوي أسنانا بيضاء اللّون لشدّة اهتمامها بها... لم تتغيّر.

بقيَتْ طوال الحفل ملتصقة بي تسرد لي ما حدث في غيابي من طلبات زواجٍ وإعجابات ومغامرات وأنا أتابع ثرثرتها المتواصلة باهتمام تصاحبه ابتسامة شوقٍ لها.

ثم انتفضت فجأةً أبحث عن أمّي بعيونٍ ثابتةٍ إلى أن وجدتها جالسةً بالقرب من أم بشرى _زوجة عمي الطاهر_ كنت أتابع حديثهما وملامح وجهيهما السعيدة. لطالما أحبّا

بعضهما البعض بالرغم من كل الظروف التي واجهتهما.

ازداد عدد الضيوف شيئا فشيئا من كل حدب وصوبٍ، فعمّي الطّاهر له معارفٌ كثيرة من شتّى مناطق الوطن وختانُ حفيده هو بمثابة حدثٍ كبيرٍ بالنّسبة له فقد أحضر أمهر الطّبّاخّين وأجود المأكولات والمشروبات. كان صوت الأغاني الشاويّة والقبائليّة والسطايفيّة يزداد مع وصول أكبر عددٍ من الضّيوف ثمّ ترى النّساء يتمايلن هنا وهناك ويحرِّكن بطونهنّ للرّقصِ تعبيرًا عن الفرح فهاته ترقص بسعادة وتلك تزغرد بروح رياضية عالية وأخرى تطلب من علجيه الرقص وتدفعها وهي تقهقه عاليا.

- متحشميش...رانا نسا برك

وكأنّها تعرّيها من خجلها وحيائها مدّعيّة أنّ الخجل سترة يجب أن تزال فيما بين النّساء، كنت أتابع تفاصيلهم مكتفية بالابتسام إلى أن أحسست بيد تدفعني إلى وسط الصالون:

-ارقصي يا هدى علّك تعجبين أم شخص ما

إنّها بشرى كعادتها

كنت أعلم أنّها تقصد بأمّ شخص ما «أمّها» لا غير؛ لأنّني علمت منها مؤخرّاً أنّهم اكتشفوا الحبّ الذّي يكنّه لي أخوها

منذ أن باشرتُ العمل معه منذ سنتين، وعلمت أيضا برغبة عمّي الظّاهر في تزويجنا في أقرب وقت.

آهٍ يا عمي لو تعلم ما بقلبي... لو تعلم بأنّ قلبي خُطف قديما ولم يرجعه لي ذلك السّارق اللّعين الذّي كان يفصلني عن العيش معه تحت سقف واحد أيام معدودة بينما هرب بعيدا ولم نجد له أثرا...

- لا يا عزيزتي فكلّ فتاة تفكّر بأنّ الزّواج هو مصدر انطلاقتها هي غبيّةٌ تماما مثلك

قلتُ ذلك وأنا أصطنع الابتسام كي لا أفسد مزاجي وتراني أمّي أرجع لأعيش تلك الحالة التّي جرّتني أياما أحتضن وسادتي بشهقات محتضرة أدعو الله أن يوضّح لي الطّريق.

تمايلت وهي تضحك قائلةً:

- كفاك فلسفة يا فتاة... أنتَ تعلمين ضرورتنا لذلك

ثمّ أضافت وهي تحوم حولي وتربّت على كتفي:

- إنّه الواقع يا عزيزتي... إنّه واقعنَا

بشرى تحاول إقناعي بضرورة الزوّاج من أخيها بطريقة ضمنيّة وهي تعلم أن قلبي يقع بعيدا هناك خلف البحار، هل تحاول ظلم أخيها والانتقام منه أم منّي؟

كيف سأرفض طلب عمّي بعد أن تأكدت من الأمر... أيّ عذر سألتمسُه الآن؟ ماذا ينقص خالد كي أقنعهم أننا لسنا مناسبيْن لبعضنا البعض؟ ماذا أفعل؟

شردت للحظات وأنا أقف في منتصف القاعة ناسية أمر النساء اللاتّي يُصفِّقْنَ بحرارة منتظراتٍ مني أداء دوري، تجمّدت ولم أدري ما العمل؟ هل يجدر بي الجلوس الذّي يعتبر إهانة للشّخص الذّي طلب منك الرّقص معه حسب معتقدات الجزائريين.

أنقذتني أمّي من الموقف بمناداتها لي:

- إنّه وقت الغداء يا هدى، فلنذهب

انسحبت بهدوء تاركة بشرى تتمايل بفستانها الأحمر الذّي فصّل جسدها، كانت تبدو جميلة وهي ترتديه.

هبطنا السّلالم ببطيء خوفا من أن يتعثر أحدنا ويسقط إلى أن وصلنا إلى بهو فسيح تعمّه طاولات وكراسي كثيرة، أين قابلت خالد مبتسما وهو يرحّب بي:

- مرّ شهران منذ أن رأيتك آخر مرّة، سيّدة هدى يبدو أن العمل قد أخذك بعيدا عنّا

ها قد بدأت لعبة المطاردة... لا يا خالد... أرجوك لا تحاول

مطاردة قلبي سيخيب ظنّك فيّ كثيراً حينما ترى أنّه داخل هذه المرأة القويّة أخرى ضعيفة قيّدها «هو» للأبد...

بادلته الابتسام بعد أن قبّل أمّي وهو يقول:

- انظري يا خالة... يجب أن نعاقب هدى على غيابها المفاجئ المتتالي

- خالد لا زلت ثرثاراً

قلت ذلك مازحة

ما زلتُ لا أفهم طبيعة خالد، هو صديقي المقرّب منذ طفولتي، كنت أتّصل به وأخبره بكلّ تفاصيل حياتي لأنّه كان يساعدني في حلّها دائماً... خالد يعلم كلّ تفاصيل قصّتي مع مصطفى وهو يعلم أيضاً أنّه زوجي مدنياً وعرفياً لم يبق سوى الزّفاف فقط، لكّنه يستمرّ في حبّي ويطلب منّي الزّواج كلّ يوم منذ رحيله، أعلم أنّه أحس بالسّعادة يوم خطف حبيبي على متن الطائرة اللّعينة المتّجهة نحو مصر، لكنّه يائس الآن لأنّني ولعامين متتاليين أستمرّ في الرّفض... أعتذر يا خالد لا يمكنني الزّواج من غيره... هو أو البقاء وحيدة.

ادّعيت الجوع

- هيا يا أمّي دعينا نأكل، عصافير بطني تزقزق

قاطعتني أمّي:

- يبدو أنّ خالد مشتاق لمشاجراتكما اجلسي هنا سأطلب من الفتيات أن يحضرن لكما الغداء وأنا سأتناوله مع الضيوف

لا يا أمي... أنت أيضا؟ أنت أيضا تعتقدين أنّني تخلّصت من مصطفى؟ وألقيت به بعيدا عن طريقي... لا تعذّبوني يا أمّي.

استسلمت لرغبة أمّي عندما لم أجد حجّة قويّة لأنّني أعلم مدى حيلة أمّي في هذه الأمور. حسب عادات الجزائريين فإن مكان العرض يختلف عن مكان الأكل، فعادةً يجلس الضيوف في صالون كبير لكنّهم يتناولون الوجبات في مكان آخر يكون فسيح الأرجاء أين تأخذ النّساء والأطفال أماكنهم منتظرين قدوم الأطباق الشهيّة التّي من عادة عمّي الظّاهر الاهتمام بها شخصيّا، بينما أنا أراقب المنظر من أعلى السلالم إذ به يقاطع تفكيري

- أ ما زلتِ تأكلين أكثر ممّا تتنفسّين؟

جعلني أَضحك رغما عنّي، نظرت إليه وأنا اضحك بشدّة

- نعم... ههه... كثيرا...ههه

ثم أضفت بعدما استقررت

- هل ما زلت تحفظ تفاصيل حياتي المملّة؟

قال بعدما نظر إليّ نظرة جعلت قلبي يرتعش خوفا:

- لم ولن أنساك يا هدى، صحيح... تذكّرت، أنت هنا منذ سنتين لكنّني لم أحظ بفرصة الجلوس معك بمفردنا

حاولت تغيير الموضوع هربا من اعترافاته التّي أتوقّعها

- يبدو أن الطّعام شهيّ ولذيذ... مم... أنا أنتظر تذوّق الأطباق التّي سيختارها عمّي في حفل زفافك لأنّني أراه يتحدثّ كثيرا عنك هذه الأيام

ابتسم وهو يخفي وجهه

- قريبا جدّا يا هدى

آه يا خالد آه... لماذا أنت متأكّد لهذه الدّرجة؟ أعتذر لأنّني سأخيب ظنك حينما أقابل عمّي بالرّفض وهو الذّي بنى حياتي وجعل منّي أصغر سيّدة أعمال.

قاطعتنا والدته وهي تزيّن الطاولة بالمأكولات التّي اخترناها لندردش عما وصلت إليه شركتي المبتدئة

- إذن يا هدى أين وصلتِ مع أبي؟

- أنت تعلم أن شركتنا تهتم بمجال الإعلانات كثيرا، فهناك فرع يقوم بتصميمها و فرع يقوم بطباعتها وآخر يقوم بالمونتاج... مجال التسويق معقّد نوعا ماَ، تعلم أنّه لا يمكنني

شرح كلّ أمور الشركة هنا...

ثمّ توقّفت لأنّه اخترقني بنظراته

- خالد، أنت تعلم كل هذه التفاصيل لم تسألني في كلّ مرّة عنها؟

قال بعدما أشاح بوجهه إلى الوراء:

- لأنّني أحبّ أن أرى حماسك وقوتك حينما تحدّثينني عن مشروعك، بالمناسبة تهانينا على فتح الفرع الجديد

قلت وأنا ألتهم قطعة اللّحم:

- لم يفتح بعد

- ماذا تنتظرين؟

- لست أهلا كي أسيّر شؤونه، سأضع إعلانا في كل المواقع كي أجد شخصا يستحق المنصب

- حسنا، أنا وأبي نثق بك كثيرا

توقفت عن المضغ ونظرت إلى صحنه باستغراب

- لِمَ لَمْ تأكل بعد؟

- الجلوس معك في طاولة واحدة أصبح كالحلم منذ أن باشرت بعملك. هل تريدين أن أضيّع الفرصة؟

قلت كمن لا يهمه الأمر:

- حتّى المأكولات التّي يختارها عمّي الظّاهر لا يجب أن نضيع فرصة التهامها

أذكر أنّني جعلته يضحك كثيرا في ذلك الحفل بعدما أنهينا الطّعام وجلسنا في شرفة المطبخ نتحدّث ونتحدّث إلى أن فُتِح بابٌ أحكمت إغلاقه جيّداً منذ سنتين مضت. حينما طرح عليّ سؤالاً مفاجِئاً جعلني أفقد وعي قلبي ولا أحسّ بنبضاته بين طيّات حروف، أحسست أنّها لن تنتهي قبل أن تسلبني روحي.

في ذلك الوقت الذّي كنت أحتضر فيه نادتني أمّي وكأنّها صعقتني بكهرباء صوتها المرتفع

- هيا هدى فلنغادر

بدا لي أنّ الحفل انتهى حينما أحسست بنقصٍ في الضجّة التّي كانت تزعجني قبل أن يصدمني خالد بقصف سؤاله. تجاهل صوت أمّي وبقيَ يحدّقُ بي منتظرا الإجابة عما حلّ بمصطفى؟

انسحبتُ بقلبٍ منكسرٍ ورأس مرتفع كي لا أقابل أمّي على غير عادتي فتتحسّرَ عليّ وتحزنَ وربما ستبتلّ عيناها الجميلتان بدموع الألم. ما إن وطأت اقدامي باب المنزل حتّى

سمعت بشرى تهتف باسمي من بعيد وتشير إليّ بالرّجوع، استدرت وعدت أدراجي بخطوات سريعة لأنّني أحسست بجديّة الموضوع بعدما تركت أمّي تتمشّى في حديقة المنزل وخالد لازال يطلّ من فوق الشرفة بعينين مركزّتين على المشهد، كان ينظر من جهة إلى بشرى ومن جهة كان يتابع خطواتي السّريعة. اعتقدت أنّ لبشرى علاقة بالموضوع لكنّ الموازين انقلبت وأحسست باطمئنان حينما احتضنتني وقالت:

- إلى أين أيتها الحقيرة، لم تكلّفي نفسك حتّى عناء توديعي

أحسست بأن دم جسدي كلّه صعد إلى وجهي بعدما ضغطت بأسناني على شفتيَّ كي أمنع دموعي من النّزول

قالت وهي تمسح دموعها:

- شتتتتت، سترانا أمّك

سعادة أمّي أصبحت تتعبني كثيرا اليوم، لأنها تمنعني من أن أخرج حزني وأرسمه على ملامحي علّ حدّته تنقص قليلا على قلبي.

بادرتها في الاحتضان وتبادل القبلات السريعة كي لا تسقط دموعي مجدّدا، ثمّ انسحبَتْ قليلا كي ترى وجهي

- إن خديجة ترسل إليك سلامها الحار

قالت ذلك وهي تحمل كتابا بين أناملها

- آه؟ خديجة؟ أرسلي إليها اعتذاري لأنّني لم أهنّئها على أوّل مولود لها

ابتسمت وبسطتْ يديَّ بحركة خفيفة من يدها اليسرى واضعةً الكتاب فوقهما

- إنّها تقول بأنّها تريد منك أن ترجعي لها بمثله

تلك الكلمات... وقْعُها... أيقظت نار شهوة قديمة... شهوة أعرفها... شهوة كاتب

ابتسمتُ لأخفي صندوق أسراري ثمّ قرأت العنوان بصوت مرتفع

- لن أتزوّج... يا له من عنوان جريء كصاحبته

رفعت رأسي نحو السماء وأنا أردّد بصوت هادئ:

-إنّ خديجة خُلقت لتكتب، أمّا أنا فقد كتبت لأتخلّص من جرّ الأقدار لشعري في متاهات البؤس... كتبت لأشقى

لم تهتمّ بشرى كعادتها بما أتممت به وعادت إلى داخل القصر بعدما ودّعتني.

توجّهت نحو أمّي بخطوات متثاقلة وأنا أحاول سرقة النظرات

لأرى تلك العيون لازالت تراقبني بحزن ويأس ممتزجين

- أمّي؟

انتفضت من تفكيرها العميق وهي تبادلني نظرات حيرة

- نعم حبيبتي ماذا حدث؟

غيّرت نظرتي فجأة وابتسمت وقلت لها:

- لا شيء عزيزتي فلنذهب

تجاهلت ذلك الصّديق الوفيّ الذّي ساعدني كثيرا ونظراته ورحلت بعدما استدرت آخر مرّة لأقول له: «أنا آسفة عزيزي، صديقي، رفيقي، نصفي الثّاني، لكن يجب أن أهرب بأمّي في أقرب وقت ممكن.»

لم يكن أحدٌ يعلم بأمر هروبي القريب ما عدا بشرى التّي كانت تودّعني بنظراتها طوال الحفل.

أخفيت الكتاب داخل معطفي وتوجّهنا نحو الخارج بعد أن طلبت منّي أمّي أن أطلب من السّائق الرّحيل لأنّها تودّ المشي قليلاً.

تماطلنا ونحن في طريقنا إلى البيت مع تلك النّسمات الشّتائيّة التّي تداعب خدّيَّ وذلك الهواء الطلق الذّي استقرّ ضيفاً بين أسناخ رئتيّ، كنت أنظر مليّاً إلى الشّوارع وأتأمّل

وجوه العابرين منهم النّساء والأطفال والرّجال، كلٌّ يجري نحو مصلحةٍ هي أنفع له، وإلى كلّ تلك الألوان والأقمشة والأحذية بكلّ الموديلات، أين أنا من كلّ هذا؟ لا أذكر آخر مرّة ذهبت فيها إلى السّوق لاقتناء الموضة ولا نوع عطر جديد ولا ديكور بيت جميل.

كان ذلك منذ زمن حين كنت أحضّر لحفل زفافي بكلّ حيوية وسعادة وبشعور لم يسبق لي أن شعرت به، حينما كنت ألتقي به هنا ونذهب لاختيار أجمل ديكورات المنازل ونقتني أجمل الفساتين، حتّى «تصديرتي» لا تزال معلّقة في خزانتي منذ رحيله، أصبحت أحسّ أنّ ملابسي التّي حضّرتها له ملّت من الانتظار.

أيقظني صوت أمّي من تفكيري

-هدى انظري إلى تلك الصّحون الجميلة أودّ شراء القليل منها

آه يا أمّي؟ ليتني لم أسلك بك طريق السّوق نحو الطريق الوطني الذّي يؤدّي إلى المنزل،لازلت أحتفظ بتفاصيله بالرّغم من غيابي الطّويل عن هذه المدينة. لم أحاول المناقشة، أخرجت محفظة نقودي وسلمتها إياها قائلة:

- إنها لك. اشتري بها ما تريدين لكن أسرعي فأنا أكره هذه الأماكن.

بادلتني بنظرة «أعلم يا صغيرتي» ثمّ قالت لي:

- حقا؟ شكراً لك غاليتي. لن أتأخر

اشترت أمّي ما راق لها وعدنا إلى المنزل حيث كانت السّاعة تشير إلى الرّابعة إلا ربعا.

كل ما قد مررت به اليوم لكنّني لم أنس أبداً أختي عائشة وما قد يحدث لها إن لم أتدخّل قريبا في حلّ الرّباط وإزالة الإبهام بعد أن أرتّب أموري لأنّني أعلم أن الانتقال المفاجئ الذّي سأعلمهما به بعد ترتيب جميع الأوراق والملفّات اللّازمة سيصدمهما.

# الفصل الثالث

استيقظت صباح اليوم الموالي باكرا لأذهب إلى محطّة القطار كي أستقبل خديجة بعدما كلّمتها ليلا لأهنئها وأقدِّم لها اعتذاري. لم تقبله مدّعيةً أنّها ستعفو عنّي إذا قابلتها على السّاعة التّاسعة صباحاً أمام المحطّة.

خرجتُ من البيت بخطواتٍ هادئة وبطيئة بعدما أغلقت الباب متفقّدة رسائل بريدي الإلكتروني وأنا أحمل الهاتف بين أناملي بتركيزٍ علّيَ أجدُ رسالة مهمّة. قطعت الطّريق الوطنيّ الذّي يطلُّ على ساحل المتوسّط وإذا بيدٍ تمسك مرفقي وترجعني بقوّة إلى الوراء نحو جسد منتصب على رصيف طريق وطنيّ خالٍ من حركة المرور وكأنّه كان مهيّأً من طرف حكومة القدر وشرطة الحظّ لإخلائه من المارّين. أمسكني واضعا يديه على كتفيَّ ضاغِطاً عليَّ بقوّةٍ كي لا يتسرّب جسدي خارج أنبوب سيطرته... إنّه هو... تلك التّفاصيل التّي طالما حفظتها... تجاعيد وضعتها عليه مساحيق الأقدار بأدوات الغربة يعلوها سواد عينين صارم وقويّ بنظرات شاهقة عهدتها أيّام دراستي

وفي قمتهما حاجبان عريضان يزيدانه وسامة وأناقة، إطلالة لم أشهد لها مثيلا، زادته الغربة في بلاد أوروبيّة أناقة عن أناقته المعهودة. كان يحاول احتضاني بينما انتفضت صارخة بأعلى صوتي بعدما دفعته بكلّ قوّتي إلى الطّريق

- لماذا؟

وكأنّ نبرة كلمة من خمسة حروف اختَصَرت كل أحداث الماضي القاسي الذّي مررت به، نظر إليّ بحزن وأسى وتقدّم نحوي بخطوات هادئة وهو ينظر صوب عينيَّ بكلّ هدوء بينما كنت أتراجع خطوة كلّما تقدّم خطوة إلى أن وصل قربي، أمسك يدي بيده اليسرى وباليد الأخرى كان يمسك هاتفي الذّي التقطه من على الأرض بعدما سقط مني عندما دفعته. قطع بي الطّريق إلى الجهة المقابلة وهو يجرّني بحنان، لم أقم بأيّ رد فعل، استسلمت له بعدما غلّل يديّ وقادني نحو القدر، كان ينظر إلى الأمام بتركيز شديد وكأنّه يحاول تذكّر مكانٍ ما محت الغربة معالم تفاصيل طريق الوصول إليه وتارة يخطفني بنظرات ملكٍ لأميرته الصّغيرة خوفا من هربها.

وصل بي إلى مقهى في نهاية شارعٍ ضيّقٍ متفرّع من الطّريق الوطنيّ. كان المقهى قديما به أشخاص قليلون وكأنّه

كان موطن عشق كبارنا في الماضي. فتح باب قدري ودخل ثمّ استدار مشيرا إليّ بالدّخول، أحسست بأنّني فقدت السيطرة على أقدامي ولم أقدر لا على التّقدّم ولا على الرّجوع إلى أن أحسست بيدٍ تدفع ظهري ببطءٍ واليد الأخرى تمسك يدي بحنان متقدّماً بي نحو متاهة لا أعلم خفاياها. سلّم على صاحب المقهى ثمّ اختار طاولة في زاوية منفردة بعدما تبادل الحديث مع النّادل، لربما كان يعرفه تمام المعرفة لفرط ما كان يزوره لأنّه بدا لي في مثل سنّه. سحب لي الكرسيّ وأجلسني ثمّ جلس مقابلا لي تصاحبه نظرات تحكي رواية لن تحكى على الشفاه ولا على الأقلام أبداً. كان ينظر تارة خلفي نحو الزبائن وتارة يتمعّن في تركيبة هذا المكان العريق الذّي بالرّغم من قدم بنيته إلّا أنّ النّاس لا يزالون يتوافدون عليه بكثرة وكأنّه معلم من معالم حضارة ما... «حضارة الحبّ». شككت للحظة في أنّه كان يلتقي بها هنا أو لربّما التقى بها لأوّل مرّة هنا ولهذا فهو يتمعّن في المكان ليتذكّر الجميل من ذكرياته معها، وينظر إلى الموجودين علّه يجد شخصا كان يربطه بها. استيقظت فجأة من غيبوبة أفكاري ورميت الطّابة لعينيَّ لأتفحّص المكان جيّداً كي أجد أين يكمن السّر،

كان يتكوّن من طاولات محدودة العدد عليها أقمشة قديمة بلون واحد مائل إلى البنيّ تحيط بكلّ واحدة منها أربعة كراسٍ ذات جودة رفيعة من الخشب بالرّغم من بهتان لونها، فجأة نقلت نظري إلى الثريا التّي تزيّن سقف المكان بطلّتها السّاحرة والفريدة من نوعها، ربّما كان يشبّهُ أناقتها وسحرها بسحر هذه الأشياء اللّماعة التّي تعلوني وصلابة أفكارها بهذه الجدران التّي لازالت صلبة وقويّة أمام الهزّات العاطفيّة التّي تتعرّض لها كلّما يلتقي قلبَان داخلها.

كان هادئاً أمامي هدوء تحضيرٍ لمعركة كلمات ستبدأ بعد برهة، تشابكت أصابعه فوق الطّاولة قبل أن يفتح شفتيْه:

- لقد كانت جدّ صغيرة في ذلك اليوم، حملتها بين أناملي وأنا أرتجف بقوّة خوفا من إسقاطها أرضاً، لأوّل مرّة أحسست بشعور غير العادة بسبب تلك الكتلة الصّغيرة، لم يكن شعور الحبّ الذّي اعتدته بل كان شعوراَ جديداَ على قلب أب يحمل أوّل ابنة له، آنذاك لم أكن أدري أنّه شعور الأبوّة اللّذيذ.

ثمّ أضاف بعدما أحسّ بأنّني أوّد سماع المزيد:

- عندما أخبرتني أمّي أنّك فتاة فكّرت في اسمك، وأوّل اسم طرق على باب منزل ذاكرتي هو اسمها، هي تشبهك حقّاَ يا

هدى اسماً وشكلاً وفِكراً، أنّا أراها فيك.

كان رصاص تلك الكلمات يخرق قلبي شيئاً فشيئاً إلى أن تصدّيت له بحصن كلماتي:

- وأين هي الآن؟

تنبّه برفع عينيه تجاهي بعدما أدركت الرّسالة العصبيّة مخّه لأنّه يعلم أنني أعرف الجواب. قال كمن يغيّر مجرى الحديث:

- هدى... أنا لم أخن أمّك لأنني لم أكن أريدها منذ البداية لكّنهم لم يتفهّموا بأنني أحبّ هدى... هدى وفقط.

بسطت يديَّ على الطّاولة برفق وأنا أنظر نحو عينيه بجدّية:

- تلك الإجابة لا علاقة لها بسؤالي.

أجاب بعدما اعتدل في جلسته موازيا ظهره على الكرسيّ:

- يبدو أنّ الطّاهر قد جعل منك قويّة كما أوصيته.

ثمّ أضاف:

- راهي لهيه...

أكان يقنعني بأنّه لم يخن أمّي أم كان يزيد الملح على الجرح في صراحته المطلقة تلك. ابتسمت بألم وأنا أحوال

إظهـار كبريائـي لـه

- جميل

غيّر ملامح وجهه إلى الجدّية بعدما كان يحنّ على كلماته التّي يصوّبها تجاه أذنيَّ وقال:

- أتعلمين أنّني أراقبك منذ زمن ليس ببعيد

أجبت ببرودة:

- كنت أعلم ذلك، لأنّ عمّي أخبرني أنّك هنا.

تجاهلني ووجّه كلامه إلى النّادل:

- قهوة بثلاث ملاعق سكّر

صدمتني كلماته حدّ تقريب فقد الوعي تماما... كيف له أن يعلم بهذه الأمور وهو لم يلتق بي منذ أكثر من ثماني سنوات. أحسست بأنّه يراوغ ويريد أن يسابقني في متاهة القدر التّي زرع نباتاتها بيديه. هل يعقل أنّه يأخذ الأخبار من عمّي الظّاهر؟ لكنّ صديقه لا يعلم الكثير عنّي. ثمّ أضاف:

- وكأس ماء من فضلك

استدار نحوي بعدما استجاب النّادل لإحضار الطلب وقال:

- ألم أخبرك؟

كَان يبتسم بعينيهِ طوال ذلك اللّقاء بينما كنت أزداد اصفراراً،

قلت كمن يحاول أن يوقع بالفريسة في شباك الحقيقة:

- وهل تعلم أيضاً أنّني ربحت القضيّة؟

قال بعدما أشعل سيجارتَه:

- وهل تعتقدين أنّك ربحتها لوحدك؟

بربّك؟ كيف علمت بكلّ تلك الأمور؟ كنت أوّد قول هذا لكنّني قلت:

- إنّ أخاك حاول رمينا في الشّارع بعدما تركتنا لوحدنا

ثمّ أضفت:

- أقصد بعدما أخذك الحبّ منّا

أحسست بأنّني أخللت توازنه قليلا حينما قال:

- الحبّ يا صغيرتي هو أن يأخذك لا أن تأخذيه

كان يحاول مراوغتي في كلّ فكرة أقولها، لكنّني صمّمت على أن أكمل معه الحديث حتّى النّهاية لعليّ أسلب سبب تواجده هنا ومعي... لعلّه يعرف لغز مصطفى... لعلّه السّبب في اختفائه الغامض.

- لكنّني لا أؤمن به

قلت ذلك كيف يفتح معي موضوع مصطفى بالرّغم من أنّه يؤلمني. تجاهل ما قلته للتّو ونهض مسلّماً عليّ

- غداً في نفس الموعد.

كنت أوّد أن أقف وأحتضنه بشدّة وأبكي على صدره وأصرخ باسمه عاليا، لكنّ كبريائي غلّل جسدي ومنعني حتّى من إرجاع السّلام، كنت أراه يبتعد عن الطّاولة شيئاً فشيئاً إلى أن استدار وقال:

- ساليلي على أمّك وعائشة.

◇◇◇◇◇◇◇

رجعت إلى المنزل مبعثرة الأفكار ناسية خديجة ووعدها... تائهة بين عناوين متشابهة لمدينة غريبة عنّي... لمَ؟ كيف؟ متى؟

قابلتني أمّي في مقدّمة البهو مبتسمة، كم كنت محتاجة لنوبة بكاء على صدرها أحتمي بها من هجمات الحياة المتغطرسة

- كيف حال خديجة؟ هل تقابلتما؟ هل هي بخير؟

لِمَ تكرّرين الأسئلة يا أمّي؟ أنت تزيدين جرحي عمقا بشكّك المتواصل في كذبي المتتابع غير المنتهي عن انسجام حالتي النّفسية مع الواقع الجديد.

كانت أمّي تكرّر الأسئلة باستمرار وكأنّها تحاول أن تقول أنّها تعلم سرّي خلف تلك الابتسامة المصطنعة على ثغري دائماً، نزعت حذائي وتقدّمت ثلاث خطوات نحوها إلى أن التصق ثغري بجبهتها، قبّلتها بحرارة وأنا أحاول إخفاء دموعي وتغيير صوتي:

- إنها بخير يا أمّي، لقد ازدادت وزناً

قلت ذلك وأنا أغلغل يديَّ في شعرها

تراجعت قليلا إلى الوراء ونظرت إليّ بغرابة

- هدى...هل كلّ شيء بخير؟

رفعتُ صوتي قليلا وأنا أبتسم بصعوبة محاولة إقناعها:

- هاهو الدّليل إذاً يا سيدتي

وجدتُ ذلك الكتاب الذّي أرسلته خديجة مع بشرى سببا لإقناع أمّي بعكس الحقيقة

- لن أتزوّج

رددته على مسامعها وحاولتُ أن أضيف شرحاً بسيطاً:

- يما راهي تقول مش رح تتزوج

- لميمه

كم عشقت لهجة أمّي التّي تتداولها معظم النّساء، كانت ترثي خديجة بكلمة «يا لميمه» لإظهار تعاطفها معها

حاولت تغيير الموضوع بحركة خفيفة متصنّعة اشتهائي لرائحة الكسكس الذّي تعدّه أمّي باحترافيّة

- أمم، ريحة البربوشة تسخّف يا مَّا

التحقتْ بالمطبخ ووقفَتْ أمام الباب باستقامة وقالت:

- هدى أنت لا تحبّين الكسكس... كفى تمثيلاً

أحسست بعرق الجبين ينزل ليفضح سرّي أمامها إلّا أنّ عائشة أنقذتني من الموقف بثرثرتها المفاجئة دون سابق إنذار،

وكعادتها دخلت وأحضرت معها حيويّة زائدة ناشرة إيّاها في كلّ أرجاء المنزل، نادت باسمي عندما فتحت الباب ثمّ ركضت تجاهي واحتضنت جسدي بقوّة وقالت:

- أحبّك

حاولت خلق جوّ مرح

- يبدو أنّ أمّي غارت يا عائشة فأنت لم تحتضنيها هكذا منذ أن جئت أنا

ضحكت أمّي بصوت عالٍ وتقدّمت نحونا ثمّ احتضنتنا كلتينا وقالت:

- ابنتاي... أتعلمان أنّني أثق بكما أكثر ممّا تتوقّعان... بل أؤمن بكما... أؤمن بأنّ ربّي سيجعل منكما سيّدتين قويّتين شاهقتين.

لم يكن شيء واحد في هذه الدّنيا يزيد قوّتي يوم كنت أدرس وحيدة في بلاد أجنبيّة غير كلمات أمّي التّي تتلوها كل يوم طيلة ثماني سنوات... كل يوم وكل ليلة وكل صباح دون أن تملّ من تكرارها، حتّى حينما أخبرتها عن مصطفى وبرغبتنا في الزوّاج لم تعارضني يوماً وقالت بأنّها تثق في اختياري لأنّها تعلم جيّداً كيف ربّت تفكيري منذ أن وطأت قدمايَ هُنا.

# الفصل الرابع

مصطفى كاتب شاب باللّغتين الانجليزيّة والعربيّة، التقيت به في إحدى معارض الكتاب هناك أين كنت أبحث عن عنوان وأتحدّث مع نفسي بصوت مرتفع مردّدة اسمه ببطيء كي لا يفوتني بين العناوين الموضوعة فوق الرّفوف، وقف في منتهى الرّواق وهو يراقب خطواتي وملامسة يدي للعناوين وترديد شفتيَّ لذلك العنوان إلى أن اصطدمت به، جعلته يقع أمام الناس، وقف بعدما عقد حاجبيه وقال بفضاضة:

- انتبهي يا آنسة

لم أتمالك نفسي حين كان يتحدّث معي فقد كنت أضع يدي على فمي محاولة التوقّف عن الضّحكات الممتزجة بكلمة «آسفة»، لم أستطع الرؤية من شدّة الضحك، بعد برهة أحسست بيده تمسك يدي اليمنى بقوّة ساحباً جسدي إلى الخارج دون أن يعير صرخاتي التّي أثارت انتباه النّاس، توقّف عند أوّل منعطف منعزل تماماً عن النّاس ثمّ وقف أمامي سادّا الطّريق بجسده الرّياضيّ الضخم الذّي ما كنت أتوقّع يوما

وجود وجوه وأجساد وقوّة كهذه في معارض الكتب لأنّني كنت قد كوّنت صورة في مساحة ذاكرتي عن الشخص القارئ بأنّه إنسان هادئ ضعيف خجول يضع نظارات تخفي تفاصيل عينيْه ولا يهتمُّ بمظهره كثيرا لكن ما أراه أمامي مختلفٌ تماما يا عزيزتي الغبيّة التّي تعتقد بمثل اعتقادي الأبله.

نظر إليّ بنظرات جعلتني أهدئ شيئاً فشيئاً إلى أن التزمتُ الصمت خوفا من حدّة بصره التّي زعزعت ثقتي بنفسي وجعلتني أندم لأوّل مرّة على فعل لا إراديّ قد قمت به منذ قليل، أشهر كتابا في وجهي جعلني أفتح ثغري مندهشة دون أن أنطق ببنت شفّة من شدّة الفزع، تمالكت نفسي قليلا ونطقت أخيراً:

- هذا العنوان؟ أين وجدته؟ كيف عرفت؟ لماذا؟ من أنت؟

ابتسم بخبث وقال:

- هذه آخر نسخة لهذا العام إن أردت الحصول عليها خذيها وأن أبيت فعليك الانتظار حتّى العام القادم.

- ماذا؟ العام القادم؟ مستحيل... يجب أن أنهي بحثي لهذا العام كي أقدّمه قبل حلول شهر أبريل

هزّ كتفيه غير مبالٍ منتظِراً مني الإجابة

- هاتها

مددت يدي لأخذها لكنّ طول قامته عرقلتني لأنّه رفعها إلى السّماء قائلا:

- خذيها إن استطعت

جعلني أقفز وأقفز بينما هو يبتسم بتلذّذٍ لرؤيتي أُعاني للحصول عليها

قال بعدما أنهكني التّعب:

- لم أر غبّية مثلك في حياتي... بالرّغم من أنك تدركين تماما أنّك لن تصلي إليها، تنهكين نفسك بالتّعب لأجل لا شيء.

قلت وأنا أتنفّس بصعوبة:

- ماذا تريد؟

سحب هاتفي من يدي بحركة خفيفة وسجّل رقمه

- هاهو رقمي إن أردت أن تعرفي ماذا أريد؟

ابتعد عنّي وتركني مندهشة وخائفة وفاقدة الأمل لأنّني على وشك إنجاز بحث حول ذلك الكتاب النّادر الذّي انتظرت المعرض كثيراً للحصول عليه، وقتذاك لم أكن أعلم أنّه كان يراقبني لذلك فزعت واعتقدت أنّه جاسوس أو إرهابي أو حتّى

عميل يريد منّي تنفيذ مهمّة ما... تبّا لخيالي الذّي طغى على حياتي من شدّة الولع بأفلام الأكشن وأفلام هوليوود وبوليوود وغيرهم من الخيالات اللّعينة. اتّصلت بصفاء وحدّدت موعداً معها كي أحدّثها عما حدث لأنها أنيسي الوحيد في بلاد قاسية أحكامها على شابّة وحيدة تحارب من أجل العلم ككلّ شابات عصرها اللّواتي تجرّأن على خطوة غيّرت نظام حياتهن كثيرا كصفاء مثلاً، هي طالبة علم الاقتصاد في السّنة الثّانية، سردت لها ما حدث بلهفة وتركيز شديدين ممثلة الأدوار بدقّة تارة دوري وتارة دور ذلك الغريب اللّعين الغبي

- هدى...اتّصلي به

نظرنا نظرة خبث وفضول ممتزجة بابتسامة، لم تمتدّ للحظات كثيرة حينما وقفت فجأة مغيّرة نظرتي نحو باب المطعم الذّي دعوتها إليه من أجل وجبة الغداء

- أنا أريد الكتاب لا أكثر ولا أقل

وقفت بجانبي ثمّ لكزتني بمرفقها وهي تبتسم

- الكتاب فقط!

في المساء اتّصلتُ به بعد أن أقنعتُ صفاء أن تبقى خارج الغرفة كي لا تشوّش تفكيري وما أريد قوله من أجل إقناعه

بحاجتي الضّروريّة لذلك الكتاب

جاءني صوت رجوليٌّ من الجهة الثّانية جعلني أجلس بعدما كنت واقفة

- ألو الآنسة الغبيّة

- مساء الخير يا سيّد لعين

- يبدو أنّك في أمسّ الحاجة لهذا الكتاب

قلتُ ببرودة كي لا يشعر حقّا بحاجتي إليه ولا يحاول استغلال نقطة ضعفي

- نعم

انفصل الخطّ بعدما سمعت سكونا دام أكثر من خمس ثوانٍ.

أذكر أنّه خاب ظنّي كثيراً حينما اعتقدت بأنّه رحل ولم يعد وهذه كانت إجابته النهائية، لا أعلم لِم أمسكت قلبي بقوّة خوفا من أن يخرج من القفص من شدّة سرعة النّبض... لم أستطع أن أفرّق هل أنا حزينة لأنني ضيّعت الكتاب أم لأنّني ضيّعته «هو». بعد ربع ساعة أعاد الاتّصال بي

- يبدو أنّك على أهبّة الاستعداد للإجابة.

كنت سعيدة حدّ الطّيران في الهواء حتّى ذلك بدا من نبرة

صوتي حين نبّهني اللّعين لذلك

- هل أنت سعيدة؟

قلت بعدما ادّعيت الكحّة:

- نعم لأنّني على وشك إقناعك للحصول على كتابي

- مم...حسنا

- ماذا تريد؟

- هل تعتقدين أنّني سأخبرك بسهولة؟

- ماذا يريد شخص مثلك من فتاة مثلي؟

- الكثير

- مثلا

- لا تحاولي المراوغة صغيرتي

- لكنّني لست صغيرة أيّها اللّعين

- كفاك نطقا لهذه الكلمة وإلا حرقت كتابك الآن

- حسنا... حسنا... إياك والتّفكير في ذلك

- اخرجي معي في موعد ليوم واحد

- ماذا؟ موعد؟ لماذا؟ متى؟

- هل تريدين الحصول على كتابك؟

- نعم

- إذن أنتظر ردّك اللّيلة

أقفلت الخطّ وأنا أقرص خدّي، ربما أنا أحلم مع هذا الشّخص اللّعين الذّي سيفقدني صوابي.

خرجت وأنا ألمس جبهتي خوفا من ارتفاع الحمّى، قابلتني صفاء بفضول بادٍ على عينيْها

- ماذا قال؟ ماذا يريد؟

- يريد أن يخرج معي في موعد

قالت بسخرية:

- هذا ما كنت أتوقّعه تماما

- الأمر مختلف مع هذا يا صفاء

- كلّهم سواء لا يخدعك لعبه على أوتار أعصابك عزيزتي

- سنرى

في اللّيل اتّصلت به وأخبرته بموافقتي، حدّد لي المكان على السّاعة التّاسعة صباحا.

حذّرتني صفاء كثيراً حينما رأتني أستيقظ صباح أوّل أيام عطلة الأسبوع على غير عادتي من أن يغير هذا الغريب حياتي أو يتسبّب في تدميرها بعدما فعلها أقرب الرّجال إلى قلبي يوم تركنا أنا وأمي والصّغيرة عائشة ورحل.

كان وقع تلك الكلمات على قلبي ثقيلا ومؤلما لأنّها كابوسٌ يطاردني كل تلك الأيام التّي مضت حتّى إلى ما وراء البحار.

قابلني بنظراته المعتادة الخالية من الحنان والرّفق قائلا:

- غبيّة...ألم أقل أنّه موعد؟

- وماذا في الأمر؟

- ألا تعرفين ما معنى أن تخرج فتاة رفقة شاب؟

- لا

- يبدو أنّك لم تخرجي يوما...ما هذا المظهر الطّفولي؟ ومن ذا الغبّي الذّي سيتقرّب منك وأنت بهذه الحالة؟

عضضت بأسناني على شفتيَّ وأنا أطارده بحقيبتي التّي تعتبرها صفاء زادَ حرب عالميّة ثالثة، كان يجري وهو يبتسم وأنا أجري وراءه في متنزّه مليء بالنّاس. إلى أن اصطدمت بشاب غريب الأطوار راح ينظر إليّ وهو يشتمني بشتّى الكلمات البذيئة ثمّ دفعني بقوّة جعلتني أسقط أرضا منهارة القوى ثمّ وجدته يسلبني حقيبتي بقوّة وهو يصرخ عليّ كي أتركها وإلاّ سيقتلني، تركتها بعدما خانتني قوّتي، رأيته يبتعد وهو يجري بسرعة نحو المجهول، لمحت قميصا أزرق اللّون يجري خلفه

وهو يصرخ عليه كي يتوقّف... إنّه هو... راح النّاس يتأمّلون المشهد باندهاش حينما شاهدوه يقترب منّي وهو يحمل حقيبة يدي وفمه يسيل دماً. حملني غير آبه للعيون التّي تراقبنا دون أن أنطق خوفا منه وعليه، حقّا كنت غبيّة تماما كما وصفني مصطفى لأنني لم أنتبه أنّ ذلك الغريب قد كسر ذراعي حينما دفعني ولم أدرك ذلك حتّى وصلنا إلى أقرب مستشفى بعدما طلب تاكسي.

ظلّ يتأمّلني بنظراته التّي تخيفني وأحبّها في نفس الوقت إلى أن أربكني وجعلني أعرق، استقررت في جلستي فوق سرير المستشفى وقلت له:

- قل إنّني غبيّة...قل إنني لعينة...قل إنني شريرة، فقط لا تنظر إليَّ بهذه النّظرات المخيفة

خيّم الصمت قليلا في الغرفة ثمّ انفجر قائلا:

-ماذا لو حدث لك مكروه؟ لم لا تنتبهين أمامك؟ لم أيّتها الغبيّة اللّعينة الشّريرة؟

نفس إيلام أبي ونفس كلماته ونفس نبرته ونفس خوفه، لم أتمالك نفسي وكان آخر ما سمعته قبل أن أفقد الوعي هو:

- هدى...هدى انظري إليّ

استيقظت على يد تلمس يدي بينما كان صاحبها غارقا في النّوم، بدا لي أنّه لم يذق طعمه منذ أيام عديدة... مهلا؟ أين أنا؟

جعلته يستفيق وهو يضغط على يدي بقوّة حينما حرّكتها ساحبة إياها من بين يديه

- هل أنتِ بخير؟

- نعم...ماذا حدث؟ كم مرّ من الوقت وأنا نائمة؟

ابتسم بحنان لأوّل مرّة منذ أن قابلته، وأشار إلى ساعة يده، كانت حينها تشير إلى التّاسعة مساءً، فجأة خطرت على بالي صفاء وما إن نظرت إليه كأنّني تذكّرت شيئاً مهمّاَ حتّى قاطعني

- اتّصلت صديقتك على السّاعة الخامسة مساءً لتسأل عنك فأخبرتها أنّك ستمضين اللّيلة في الحرم الجامعيّ رفقة زملائك من أجل بحث تطبيقيّ ستقومون به غداً.

رفعت حاجبيَّ وأنا أقول:

- مم...حسنا

- ماذا؟

- لا شيء

مضى اللّيل بسرعة وأنا بقربه أراقبه مختلسة النّظر إليه وهو نائم كالطّفل الصّغير، فكّرت كثيرا في صغر الدّنيا وصدفة لقائي مع هذا الشّخص الغريب الذّي لوّن حياتي بشعور لم أفهم بعد حقيقته، أو ربّما لازال الوقت مبكّراً لولادة الاعتراف الذّي سيغيّر حياتي. ثمّ أتى الصّباح الذّي أعلن نهاية الحلم الذّي نعيشه بحكم قواعد القدر، دخلت البيت وأنا حزينة بعدما ودّعته عند باب المستشفى مستقلّة تاكسي نحو غرفة تحتضن ألمي وسرّي وضعفي أمام هذا الوداع الذّي لا أريده، قابلتني صفاء وهي تصرخ في وجهي عن سبب إصابتي المفاجئة هذه، ابتسمت كي أخفي الحقيقة وسردت لها قصّة كنت قد عقدت أحكامها في الطّريق باحترافيّة كاتبة ناشئة في طريقها، أذكر أنّني في بدايات رحيل والدي عنّا كنت أكتب القصص القصيرة وأبيعها كي لا تضطرّ أمّي للتسوّل أو سؤال الأقرباء الذّين ما ساعدونا يوماً غير إضافة بعض الأحكام التّي لا تعنيهم أصلاً حول إنجازاتي ومستقبلي ودراساتي وحياتي العاطفيّة والشخصيّة وتقريباً كلّ ما يخصّ حياة قريبتهم الشابّة التّي كانت بحاجة إلى مساعدتهم وليس إلى أحكامهم التّي تعتبر «خضرة فوق شبعة» حسب المثل الجزائري المشهور.

مرّت الأيام واحدة تلو الأخرى دون أن يتّصل بي ليسأل عن حالي، حتّى إنّني اعتقدت أنّه نسيَ أمري ذلك اللّعين الذّي أحدث ثغرة في قلبي بسبب غيابه، بالرّغم من الاشتياق لكنّ كبريائي أبى أن أتّصل به من جهتي كي أطمئنّ عليه وسرعان ما وجدت ذريعة كي أسمع صوته وأسأله عن حاله ربّما يحرّك ذلك قليلا من مشاعره الجامدة.

دوّنت رقمه على شاشة هاتفي وانتظرت ردّه

- ألو

- ألو نعم

جاءني صوته من النّاحية الأخرى ليطبق فمي

- انتظرت اتّصالكِ

مكثت لحظات صامتة أنظر إلى المرآة، ثمّ تنبّهت

- اعتقدت أنّك نسيت أمري حين لم تتّصل بي

ثمّ أضفت بصوت منخفض:

- اعتقدت بأنّك حرقت كتابي

استقبلت ضحكة خفيفة يحاول صاحبها إخفائها ربّما ليحافظ على هيبته أمامي

- غدا أمام المكتبة العامّة على السّاعة العاشرة صباحاً

ثمّ أغلق الخطّ حتّى دون أن أشكره، لطالما تساءلت عن سبب هروب هذا الغريب الذّي لا أعرف اسمه حتّى منّي إلى المجهول ويا ليتني دريت بالسرّ في ذلك الحين.

في الصباح حملت حقيبة ظهري الصّفراء التّي تهزأ بها صفاء كثيراً وكثيراً ما تهدّدني بالانفصال عنّي في الطّريق العامّة كي لا يظنّ النّاس أنّها صديقتي. أعلم أنّها حقيبة فتاة في السادسة من عمرها لكنّها كانت هديّة أمّي في عيد ميلادي الثامن عشر حيث قالت وقتها: «مهما كبرتِ يا ابنتي ستظلّين هدى الصّغيرة ذات الستّ سنوات» أذكر أنّها كانت آخر هديّة من حبيبتي حتّى الآن، رحلت عنها بعدما رحل والدي بعامين ومكثت أدرس عامين متتاليين لم أزرهما فيها ولو لمرّة كي لا أكثر المصاريف على عمّي الطّاهر الذّي تكفّل بكلّ ما يخصّ دراستي في الخارج، كان الوحيدَ الذّي قدّم لي المساعدة بلا مقابل، كنت أدعو ليلاً نهاراً كي يكثّر الله من أمثاله في كلّ بقاع العالم من أجل إحياء أحلام كلّ فتاة طموحة وقويّة ومشاركتها العالم بما لديها من أمور.

تقدّمت نحو المكتبة العامّة أخمّن فيما يخبّئه لي ذلك الخبيث اللّعين من مفاجآت، كنت أتجّول بين رفوفها إلى أن

همس لي صوت:

- صباح الخير

قفزت إلى الوراء ممدّدة يدي نحوه كي ألكمه بقبضتي الصّغيرة، بينما هو تصدّى لي بطريقة احترافيّة جعل بها يدي وراء ظهري واقفاً خلفي ضاغطاً عليّ بأشدّ قوّته.

لم أعلم ماذا أفعل؟

هل أصرخ من شدّة الألم؟

أم أتعجّب من احترافية دفاعه التّي جعلتني أشكّ في أمره؟

أم أسمع دقّات قلبي؟

لا تتوقّف يا قلبي قبل أن أشبعك منه

ترك يدي حين لم يستقبل أي ردّة فعل

- اعتقدت أنّك صعدتِ إلى السّماء

يا وليتي من ذلك الألم الذّي تنبّهت له سيالتي العصبيّة الآن. مسكت فمي بيدي وهرعت إلى الخارج بسرعة ممّا جعلته يجري ورائي ويصرخ:

- احذري كسر يدك الأخرى أيّتها الغبيّة

توقّفت عند أوّل ساحة فارغة وصرخت بأقصى ما لديّ من قوّة ثمّ تقدّمت نحوه بغضب

- أيّها اللّعين سأشتكي بك إلى الشرطة، هل كنت تحاول كسر يدي الأخرى؟

ضحك بصوت مرتفع ثمّ قال:

- الشّرطة؟ وهل كان يجب ألا أدافع عن نفسي من لكمتك التّي كانت ستكسر لي أنفي؟

نظرت إليه بعينين تملؤهما الدّموع ممسكة يدي

- هل كنت تريد قتلي؟

أذكر حينها أنّني بكيت كثيراً ممّا جعله يشعر بالذّنب، ويحاول تهدئتي

- أرجوك اهدئي يا حلوتي سأشتري لك حلويات كثيرة

نظرت إليه بغضب:

- اذهب إلى الجحيم أنت وحلوياتك اللّعينة

- ماذا أفعل كي تسامحيني؟

لم أردّ عليه واستمررت في البكاء كالأطفال.

ركع على ركبتيه كي يصل إلى مستوى قامتي وأنا أجلس على كرسي السّاحة بعدما نظر إلى ساعة يده، مسك وجهي بكلتا يديه وقال:

- هدى يجب أن أذهب الآن

ثمّ أشار إلى الكتاب الموضوع يميني

- إنّه كتابك لم أحرقه

أحسست برعشة غزت كامل جسدي بسبب نبرته تلك وكأنّه يودّعني... وكأنّه آخر لقاء لنا... وكأنّه سيرحل... ثمّ كيف درى باسمي؟ الأمر يتعدّى الحدود.

كان يسرع باتّجاه الحافلة وهو ينظر إلى ساعة يده، ربّما هو على موعد مع حبيبة أو صديقة أو ربّما معجبة. هذا ما كنت أقنع نفسي به منذ أن عرفته، فضّلت ذلك على أمور أسوء كنت أشكّ بها.

مرّت عشرة أيام وسبع ساعات وخمسٌ وثلاثون دقيقة على آخر لقاء لنا كنت أنتظر ليلا نهاراً اتّصالاً منه لكن ذلك لم ينفع فحاولت الاتّصال به لكن دون جدوى لأنّ خطّه كان منفصلاً كلّ الوقت. كانت الأيام تتكرّر، استيقاظ، حافلة، محاضرة، وقت الغداء، إعداد البحث حول ذلك الكتاب، رجوع للمنزل الذّي تمّ تدبيره لنا من طرف معارف عمّي الظّاهر لي ولابنة صديقه صفاء، عشاء، نوم. وكان يتخلّل كل هذه النّشاطات انتظار لاتّصال من حبيب غريب، أليست الدّنيا ظالمة بحقّنا؟ لم قد يترك قلبي كل الأصدقاء والأقارب والمعجبين ويعشق

في غريب قريب بعيد كهذا؟

بينما أنا أحضّر العشاء مع صفاء في اللّيلة الحادية عشر رنّ هاتفي في الجانب الآخر من الغرفة، تركت كلّ ما بيدي وهرعت إلى الغرفة أتعثّر بفستاني وأقف مرّة أخرى خوفا من انقطاع رنّة الهاتف

- ألو

- غبيّة

كدْت أعترف له بحبّي في تلك اللّحظة لكنّني تمالكت نفسي وقلت:

- ماذا تريد؟

وكأنّني قلت له أين كنت كلّ هذا الوقت؟ لماذا تبتعد عنّي؟

أجاب:

- أعدك لن أبتعد عنّك مرّة أخرى صغيرتي

انفجرت في وجهه

- أنت مجنون...أين كنت كلّ هذا الوقت؟ لماذا تفعل هذا؟

تقترب كثيرا ثمّ تبتعد فجأة

أجاب بصوت حزين:

- إنّها ظروف العمل

- حسنا لا بأس

- هل أطلب منك آخر طلب؟

خفت كثيرا أن يكون يقصد بالأخير أنّنا لن نلتقي مجدّدا

- اطلب بالقدر الذّي تريد عشرة... مئة... ألف

مكث قليلا ثمّ قال:

- هل ترافقينني إلى سهرة عمل غداً كحبيبتي

- ماذا؟ موعد... سهرة... ما قصّتك مع هذه الأمور؟

- في الحقيقة يجب أن أذهب مع حبيبتي «ماري» لكنّها في عطلة سافرت قبل أيام

- هل تريدني أن أمثّل دور ماري؟

- نعم

كدت أنفجر من شدّة الغضب حين قطعت الخطّ في وجهه وناديت صفاء، حدّثتها بالتّفاصيل ووعدتها بالانتقام منه بطريقتي الخاصّة، ظلّ يتّصل طوال اللّيل دون أن أردّ عليه، أردت أن أجعله يعيش نفس الحالة التّي عيَّشني إيّاها. لا أعلم لم كنت متأكدّة أنّ شخصاً كهذا لا يمكن أن تكون له حبيبة لكنّه يحاول أن يثير غيرتي بماري الخياليّة.

في مساء اليوم الموالي اتّصلت به مباشرة من صالون

التّجميـل

- صباح الخير

- أين كنت طيلة اللّيل؟

- نمت

ثمّ أضفت:

- أنـا فـي صالـون التّجميـل الآن، بعـد نصـف سـاعة أكـون مهيّـأة لحفـل عملـك

- اعتقدت أنّك رفضت

- سنلتقي بعد نصف ساعة

لـم أزر يومـا صالـون تجميـل، ولا أعـرف حتّـى أنـواع المسـاحيق التّـي تسـتعملها فتيـات العصـر لذلـك وجدت صعوبـة كبيـرة فـي اختيـار نـوع الطلّـة التّـي أريـد الظّهـور بهـا، كنـت محتـارة جـدّا فـي هـذا العالـم الجديـد بسـبب ذلـك اللّعيـن، لكنّنـي أردت وبرغـم هـذا إبـراز جزء مـن جمالـي المخفـي كلّ الوقـت كـي يتوقّـف عـن مناداتـي بالغبيّـة، لكنـه لـم يعرنـي اهتمامـا ولـم يكلّـف نفسـه عنـاء التأمّـل فـي طلّتـي الجديـدة.

وطـأت قدمـاي بـاب الفنـدق معـه وأنـا أرى تلـك الوجـوه المشـهورة، هنـا فـي هـذه الوضعيّـة علمـت أنّنـي جازفـت بروحـي

لعدم رفضي، كنت أعلم أنّ الأمر لا يتعلّق ب «ماري» وإنّما يتعلُّق بشيء أخطر من ذلك وربّما هو يستغلني لتحقيق ما جاء لأجله، لذلك لم يلاحظ التّغيير الذّي خسرت من أجله الوقت والمال كي أثير انتباهه، يبدو أن أمراً خطيراً يشغل باله لهذه الدّرجة، لا أعلم لم وجدت الأمر ممتعاً، كنت أنظر إليهم وأتخيّل ما وراء كلّ سياسيّ وكل شخص ذا مكانة مرموقة هنا، لم لا أطلق عليها «سهرة ما وراء الحقيقة»

استأذنني ذلك اللّعين الذّي لم أتجرأ حتّى على سؤاله عن اسمه لأنّني أعلم أنّه لن يخبرني الحقيقة

- هدى انتظري لحظة هنا

أمسكت يده

- إلى أين؟

أزاح يدي عنه بلطف وابتسم

- العمل يا هدى

ثمّ تقدّم بخطوات هادئة نحو شخص أخافتني تفاصيل وجهه، لم أنتظره بل تملّكني الفضول لأرى ماذا سيحصل بينهما، كنت أمشي وراءهما مع الحفاظ على مسافة الأمان بيننا، وأختبئ بين الحين والآخر حين أحسّ أن أحدهما سيستدير إلى أن دخلا

غرفة أحكما إغلاقها جيّداً، حاولت سماع ما يدور حولهما من حوار لكن دون جدوى لأنّ الباب كان يمنع توزيع الصّوت، رجعت خائبة الأفكار إلى طاولتنا منتظرة مجيئه.

أمضينا السهرة رائعة مع قليل من المزاح والألقاب المضحكة، كان الوقت بجانبه يمرّ بسرعة، بقدر ما أكون سعيدة معه أكون خائفة مرتعبة من فكرة تحقّق شكوكي حوله.

قال لي في وسط المزاح:

- بالمناسبة...أنت جميلة اليوم

- أنت متأخّر

- لماذا؟

- لقد تغزّلوا بي قبلك

احمرّ وجهه

- من؟

- أحدهم

- أرِني الحقير

- لماذا؟

- لأنّه حاول التقرّب من حبيبتي

- ما هذه الحبيبة التّي لم تتلقّى أبسط اهتمام في حفلة

اليـوم؟

أمسك بيدي وأخرجني إلى الخارج

-لا تجعلي ضغط دمي يرتفع

خفت قليلا من ردّة فعله حين نقلت نظري إلى الطّريق

- هل هذا مفهوم؟

أجبت بنعـم ثـمّ ابتعـدت عنـه منصدمـة بـردّة فعلـه القاسـية، قـال بعدمـا تنبّـه:

- هل أعجبتك الحفلة

- نعم

أراد إيصالـي إلـى البيـت لكنّنـي رفضـت خوفـاً مـن تتّبعهـم لنـا ومعرفتهـم عنـوان بيتـي، اعتـذرت لـه ثـمّ استأجرت تاكسـي ورحلـت بفـؤاد محتـرقٍ خوفـا مـن قـرب النّهايـة... نهايـة قصّتنـا التّـي لـم تبـدأ.

مـرّت الأيـام و قدمـت نهايـة السّـنة مـع قـدوم فصـل الصّيـف، حصلـت علـى درجـة ممتـاز فـي تقديـم بحثـي الـذّي تعبـت عليـه كثيـراً لأجعلـه مثاليّـاً مـن خـلال المعلومـات التّـي استنبطتها مـن ذلـك الكتـاب الـذّي كان سـببا فـي لقائنـا أوّل مـرّة، سـعدت كثيـراً واتّصلـت بأمّـي لأبشّـرها بنجاحـي المعهـود لكنّهـا طلبـت منّـي

ما لم أستطع على فعله من قبل وهو العودة قريباً، يحترق قلبي في كلّ مرّة أتحدّث فيها معها لذلك عدد المكالمات بيننا جدّ محدود، يعتقد البعض أنّ قلبي قاسٍ لكنّ الحقيقة عكس ذلك لأنّ صوت أمّي يشعرني بالضّعف كثيراً ويجعلني أرجع خطوة إلى الوراء وأتراجع عن تحقيق حلمي بالتّخرج هنا والرّجوع إليها والنّوم في حضنها الدّهر والحداد على حياتنا وما أصبحنا عليه، لكن لم أعد أتقبّل الخسارة أبداً، أنا لم أعد تلك الصّغيرة التّي يمكن لأب قاس أن يحطّم مشاعرها بنعتها بالعاطلة والخاسرة والفاشلة، هذا ما اعتدت على سماعه من السيّد محمّد، لا أعلم لماذا كان يفعل كلّ هذا بالرّغم من تحقيق نجاحات متتالية في مرحلة المتوسط ثمّ في مرحلة الثّانوية التّي غيّرت حياتي إلى الأبد باقتراح عمّي الظّاهر على أمّي تدريسي في الخارج حينما رحل والدي وأنا في القسم النّهائي، صحيح أنّ ذلك أثّر كثيرا على نتائجي الفصلية لكنّني جمعت شتاتي وتسلّحت لمعركة الامتحان النّهائي، حينما تحصّلت على درجة ممتاز تغيّرت حياة أمّي قليلاً لأنّها سعدت بانتقامها من أبي بدراستي في الخارج بعدما كان يقسم لها أنّني لن أحقق لها شيئاً سوى أنّني سأكون عبئا

دائماً على ظهرها... أنا سعيدة على ما أنا عليه اليوم بإثبات العكس لأبي.

مرّت عطلة الصّيف بين اللّقاءات في المكتبات وبين قاعات السّينما والمشاركة في أهمّ التّجمّعات الوطنيّة لمختلف الجمعيات التّي كنت قد انخرطت معها مع قدومي لهذه الأرض الجميلة. كان الوقت معه أشبه بالحلم دون أن أذكر كل تصرّفاته التّي غضضت عنها بصري كلّما زادت نسبة شكّي بسببها، وصلت إلى درجة تقبّلت مصطفى بكلّ محاسنه ومساوئه وكلّ ما قد ينجرّ عنه من ألم وخطر عليّ.

كانت السّاعة تشير إلى السابعة والنّصف صباحاً والحافلة لم تأت بعد، إنّه اليوم الأوّل في العام الجديد لي في السنّة الثالثة جامعي، كنت أرتعب خوفاً لأنّني سأفتتح عامي بمحاضرة الأستاذ «مصطفى عبد الحميد»، المعروف عنه في الجامعة أنّه شخص صارم ملتزم بالوقت ويمكن أن يتسبّب لك بإعادة السّنة إن فعلت أي شيء مخالف لقواعده. أتت الحافلة بعد انتظار طويل ركبنا وبعد ربع ساعة وصلنا إلى أمام باب الجامعة جريت نحو القاعة الأولى على يمين الرواق، لم أطرق الباب ودخلت دون أن أصدر صوتا على أطراف أصابعي ودون أن

يستدير ليراني أكملَ يكتبُ في السبورة وقال:

- طالبة...أخرجي

بقيتُ مصدومة أنظر إليه باندهاش، استدار لي بغضب

- قلت لك...

توقف عن الكلام وراح يحدّق بي غير مصدّق تماما كما أحسست أنا، ممّا جعل جميع من هم في القاعة يستديرون للنّظر إليّ. قال بعدما ابتسم:

- يمكنك الدخول

وأكمل شرح الدّرس على طبيعته التّي وجدته عليها عندما دخلت.

احتار الجميع في أمر هذا الأستاذ الصّارم الذّي لا يعرف لاختراق القواعد عنوانا وكيف ابتسم؟ الجميع كان يحدّق بي بعد انتهاء المحاضرة ممّا جعلني أتوتّر وأهرب خارج القاعة بحقيبة ظهري الصفراء نحو صفاء ألهث. لكزتني بمرفقها وقالت:

- إنّك حديث الجميع اليوم هل رأيت كيف ابتسم لك؟

حدّقت بها باندهاش :

- صفاء إنّه هو

- من هو؟

بقيت ساكتة

- هدى من هو؟

قالت ذلك بعدما حرّكتني خوفا من فقدان وعيي

- الشّخص الذّي خرجت معه في مواعيد ولقّبته باللّعين وضحكت عليه هو الدّكتور مصطفى

- ما بك يا فتاة؟ أنت تهلوسين... ربّما أصبحت ترين كلّ رجل هو ذلك اللّعين...

ثمّ أضافت وهي ترثيني:

- يا لميمه لقد أخذ لك عقلك

تركتها تثرثر ومضيت نحو الحافلة هاربة إلى المجهول، لحقت بي وهي تقول:

- هدى هل أنت متأكّدة من أنّه الأستاذ مصطفى عبد الحميد؟

هززت رأسي إيجاباً

- يا إلهي... هدى أنت لا تعرفين ما يقولونه عنه؟ إنّه شخص صارم ملتزم بالقواعد ولم يره أحد يوماً يضحك أو يجلس مع شخص آخر لا أحد يمكنه الحديث معه، رغم صغر

سنّه إلاّ أنّ له هيبة كبيرة في حرم جامعتنا.

قلت بعدما نقلت نظري إليها:

- أعلم كلّ هذا... لذلك أنا مندهشة

- إلى أين نذهب الآن يا فتاة

- فلنهرب من هنا صفاء... لا يهمّ إلى أين... أرجوك خذيني من هنا... تعبت من التّفكير

كيف يمكنني أن أخبر صفاء أن أستاذنا شخص خطير، يضع كلّ تلك الحدود كي لايشكّ به أي شخص.

بينما نحن في الطّريق اتّصل بي

- لم أعلم أنّك إحدى طالباتي

تلعثم لساني وأنا أردّ عليه

- نعم... أنا أيضا لم أعلم أنّك الدّكتور مص...

لم أستطع إكمال الجملة قبل أن يضحك علي، وصفاء تسمع معي ما يقول غير مصدّقة الأمر

- لا بأس طالبة، لا تتأخّري مجدّداً

- حاضر أستاذ

ثمّ أغلق الخطّ، فراحت صفاء تهجم عليّ باللّكزات والضحكات الخبيثة والقرصات، قالت مازحة:

- من كان يتوقّع أن الغبيّة صاحبة الحقيبة الطفوليّة الصّفراء ستجعل الدكتور مصطفى عبد الحميد يقع في حبّها

قلت بعدما أشهرت إصبعي في وجهها:

- إياكِ أن تخبري أحداً

ثمّ أضفت:

- من قال أنّه واقع في حبي كفاك شعوذة.

حقيقة... لم أكن أعلم ماذا سيحدث بعدها لكنّني أحسست بتفاصيل المستقبل تلعب على رنّات دقّات قلبي زادتني توتّرا على توتّر كنت أعيشه، في لحظات معرفتي بالحقيقة مجسّدة أمام عينيّ.

رجعت إلى المنزل مع صفاء شاردة الأفكار، مجمّدة المشاعر وغارقة في بحر التّفكير بما سيحدث بعدها، لطالما كان هذا عيبي الوحيد الذّي أعاني منه كثيرا... أحس بالأشخاص وأتنبّأ بحقيقتهم من خلال تصرّفاتهم معي وطريقة تفكيرهم المجسّدة في وقع كلماتهم ولحنها على قلبي. كنت أحس بدرجة خطورة الأمر وأنا بقربه لكن ذلك لم يمنع قلبي من التوقّف له، أصبحت مختلفة تماما مع هذا الشعور المألوف، أصبحت المغامرة أمراً بسيطاً بالنسبة لي مقابل مصارحته

وخسارته للأبد. الدّكتور مصطفى عبد الحميد أصبح عنوان حياتي.

مكثت أسبوعا في البيت أرتب أفكاري بين أربعة جدران صفراء فاقعة اللّون، أنظر إلى الشارع والمّارة تارة وأتأمّل الدّروس في حاسوبي محاولة ربط دراسة علم التسويق بمشكلتي تارة، استرجعت جميع دروس التّحليل الرّياضيّ في تلك المدّة وكأنّني أريد تحليل الأمور بالدّوال والمتتاليات والأعداد المركّبة التّي تشبهني في تركيبها المعقّد، حتّى دروس الاقتصاد وطريقة وصفها للمستهلك والمنتج لم تفدني فأستاذي ليس مجرّد أي مستهلك وأنا لست أي منتج عشوائي، لم أجد علما قد يفسّر الظاهرة بيني وبينه، عجزت تماما عن التّفكير ممّا دفعني إلى تحميل فيلم هندي عاطفي قد يريح رأسي قليلا من هموم القدر، تابعته بدقّة عليّ أجد حلّا بين سطور كاتب هذا السيناريو «القطار السّريع» إلى أن توقّفت عند جملة جعلتني أوقف الفيلم وأعيد تكرار تلك الجملة

« الحل الوحيد لحل مشاكلك هو مواجهتها «

حنّ قلبي قليلا لصفاء التّي أتعبتها معي بغلق هاتفي وحساباتي في مواقع التّواصل الاجتماعي كي لا يزعجني أي

طرف خارجي وبحبس نفسي بين تلك الجدران ممّا جعلها تتحمّل كل مسؤوليات وأعباء المنزل من طبخ وغسيل ودفع الفواتير بدلا عنّي، وعلمت حينها أنّني لا أواجه مشاكلي بل أتهرّب منها دائما. كانت السّاعة تشير إلى السّابعة مساءً بتوقيت ألمانيا، فتحت الباب برفق وتوجّهت نحو صديقتي التّي كانت تشرب الشاي في المطبخ لتهدّئ أعصابها، نظرت إليّ باستغراب بعدما وضعت الكأس فوق الطاولة وقالت:

- هدى... هل تحتاجين أمراً؟

كل خطوة كنت أقربها منها تنزل دمعة على خدّي بغزارة إلى أن احتضنتها بقوّة أحسست من خلالها بدقّات قلبها تتسارع

- ماذا حدث هدى؟ أخبريني... هل أنت بخير؟

نظرت إليها بعمق وقلت:

- أنت هديّة الله لي... أحبك يا صفاء كثيرا... سامحيني عن أي خطأ كنت قد ارتكبته بحقّك سامحيني

مسحت دموعي وأجلستني على الكرسيّ وقالت:

- ما معنى الصّداقة بالنسبة لك؟

نظرت إليها باستفهام

- هل أخبرك؟

أومأت برأسي إيجابا

- حسنا حبيبة قلبي... الصّداقة لا تقاس بالوقت الذّي نقضيه معا ولا بحجم المال الذّي أنفقه عليك ولا بعدد الأيام التّي تحمّلت فيها عنادك واعتزالك عن العالم ولا بعدد الأسرار التّي أخفيتها عنك... الصَّداقة أعمق بكثير من ذلك غاليتي، يجب أن تعلمي أنّها أعمق وأدوم شعور في الكون جميلتي، هل هذا مفهوم؟

أومأت برأسي إيجاباً مرّة أخرى غير مصدّقة أنّها صفاء، فلكلّ إنسان جانب مميّز مدفون بعيدا يحيى في أوقات مميّزة مثله.

قرّرت الخروج صباحاً نحو صفّي بكلّ جرأة وشجاعة مع صفاء سندي الأقوى وهي تشجّعني وتلومني على عدد الأيام التّي ضيّعتها بسبب الحبّ اللّعين غير دارية بالسبب الأقوى الذّي دفعني للخوف بتلك الطّريقة منه وعليه.

توجّهت نحو مصلحة تبرير الغيابات بعدما تركت صفاء في صّفها من أجل تبرير غياب دام أسبوعاً كاملا، قمت بالإجراءات اللاّزمة وتوجّهت نحو صفّي ناسية أنه الاثنين... ماذا؟ الاثنين؟ قبل أسبوع من اليوم الاثنين كان سببا فيما حدث لي طيلة

أسبوع كامل... الاثنين محاضرة الأستاذ مصطفى عبد الحميد التّي ينتظرها كلّ الطلاّب أسبوعا كاملا من أجل سماع محاضراته في علم الاقتصاد وأهم تجاربه حسب ما يقال عنه.

دخلت القاعة الأولى بقلب يرقص على نغمات الخوف منه ومن ردّة فعله عن عدم ردّي أو اتّصالي به، لم أملك الجرأة حتّى لأتفقّد رسائل تطبيق الماسنجر أو آخر الاتّصالات الواردة، تركت الهاتف مُغلَقا من شدّة التوتّر.

دخل الأستاذ في كامل أناقته المعهودة...

- هدى انظري يا له من مشهد رائع

مرّ جزء من شريط حياتي وأنا أشاهد فيلما رومنسيا مع عائلتي ولولا توجيه عائشة الكلام لي لما استيقظت من نوبة الماضي الأليم

- نعم ...إنّه جميل

كم كان الكذب يليق بي في أوقات كهذه، الماضي أصبح رواية خياليّة جميلة ترسّخت في ذاكرتي وأصبحت تصب في كل مرّة جزءا منها بين عينيَّ لأتذكّر كلّ الأحداث بالتّفاصيل. آه يا أستاذ لو ترى ما أنا عليه الآن، لقد حقّقت حلمك بكوني مديرة شركة ناشئة لقد أصبحت سيّدة أعمال محترمة يخاف

منها الجميع، لكنّني لست مكتملة دونك يا أستاذي وخطيبي الذّي حافظ على عرضي ودافع عنّي في بلاد أجنبيّة وخاطر كثيرا بنفسه أثناء التقدّم لخطوبتي لأنّ طبيعة عمله تشترط عدم الارتباط كي لا يضغط من طرف العدوّ في حالة اكتشاف أمره لإخراج المعلومات السريّة التّي تحتفظ بها جماعته الخطيرة التّي ألاحظها تتبعنا أينما انتقلنا، حتّى ونحن في شوارع الجزائر كنت أنظر إليهم بخوف فيقوم بقرص ذراعي والهمس لي:

- لا تثيري الشكّ حولهم إنّهم إخواني

لم أجرأ يوما على الاستفسار حول مهمته لأنّني أعلم أنّه لن يكذب عليّ، بسرد الحقيقة المرّة التّي ستفقدني الوعي، وصلت لدرجة عالية من الغباء معه، أصبحت أريد الاستشهاد معه وبقربه لا غير. كلّ ما كان يقوله لي حينما يحسّ بدرجة تعلّقي به:

- صغيرتي... أنا مهدّد بالزوّال في كلّ لحظة... يجب أن تعتادي على الأمر منذ الآن.

صراحته وحكمته وحبّه لمهمته وإيمانه بقوّتي الذّي حرمني منه والدي في صغري، كل ما حرمت منه عوضّني عنه

مصطفى، كان صادقا معي منذ أوّل يوم، تماما كما وعدني تقدّم لخطبتي مع أوّل شعور بأنّ علاقتنا ستؤول إلى الحرام لا محال، خطبني وقام بإمضاء عقد زواجنا وألبسني الخاتم لم يكن ينقص سوى حياة يومية تحت سقف واحد...

كان الجميع يحاول تزويجي من خلال تعريفي بشبّان من كامل أنحاء الوطن تحت غطاء العمل ثمّ الشّراكة التّي تتمثّل في الزوّاج لكنّني كنت أرفض الأمر في كلّ مرّة لأنّني لم أخلق سوى له ولأنّني أحس به يدور من حولي ويراقبني ويحرسني في كلّ خطوة أخطوها، هذا الشعور هو الذّي زادني ثقة وجرأة وشجاعة.

# الفصل الخامس

بالرّغم من التشويش الذّي أعيشه في هذا المستنقع إلّا أنّني لم أنسَ قصّة عائشة أبداً، قمت بمراقبتها منذ شهر بسبب تصرّفاتها الغريبة مؤخرّا... صعقت لهول ما رأيته، رأيت عائشة تتسكّع مع شخص أكبر منها بكثير يقاربني في العمر ويبدو مجرماً من خلال طريقة تسريحه لشعره ونوع هندامه وحتّى ماركة حذائه، بدا لي ملاكما في بداية الأمر لكنّني عرفت بعد ذلك بأنّ والده أكبر مهرّب مخدّرات في البلاد، ركنت سيارتي أمام العنوان الذّي دوّنه لي سائقي بعدما بحث عنه، نزلت من السّيارة نحو باب مرآب كبير مكتوب عليه الأحرف الأولى الأجنبيّة من كلمات «الولايات المتّحدة الأمريكيّة»، طرقته بخفّة كي لا أزعج من بالدّاخل فأتاني صوت من الدّاخل

- من؟

لم أجب خوفاً من خشونة الصّوت

- قلت من هنا؟

رفع المرآب بقوّة ووجّه خنجراً نحو معدتي، كان يفصل

ذلك الخنجر عن معدتي سنتيمترا، وقعت عيناي على عينيه بعدما أزاحه عنّي وقال:

- من أنت؟

فتحت ثغري وأنا أرتجف

- السيّد أحمد؟

قال بغضب:

- نعم...من أنت؟

- هل يمكننا أن نجلس ونتحدّث؟

أحضر لي كرسيّا وجلس مقابلا لي

- حسنا؟

استجمعت قوّتي وقلت له:

- أعلم أنّك حبيب أختي عائشة

نظر إليّ باستغراب

- السيّدة هدى توفيق؟

أشرت إيجابا برأسي

ابتسم وقال:

- كم انتظرت أن تأتي يا سيدتي

قلت له بجرأة:

- كم تريد من المال؟

قال بسخرية:

- المال؟ الأمر يتعدّى المال.

نظرت إلى السّقف ثمّ إلى الخراب الذّي نحن فيه بطريقة استفزازيّة

- نعم فأنت لا تحتاج المال

قال:

- الأمر وصل إلى الانتقام عزيزتي

قهقهت عالياً:

- أتعلم ماذا يمكنني فعله بك؟

وقف منتصبا بقامته نحو أقرب درج قديم، فتحه وأخرج منه ظرفا، رماه نحوي وقال:

- تفقّديه إن شئتِ.

فتحته وأنا أنظر نحوه مبتسمة بطريقة استفزازية، لكن سرعان ما اختفت ابتسامتي حينما ظهرت عينا مصطفى من على الظرف، فقدت صوابي وقطعت الظرف أشلاءً وأخرجت الصّورة، احتضنتها بقوّة ثمّ توجّهت إليه وأنا أسحبه من قميصه الرث

- أين هو؟ ماذا فعلتم به؟ ماذا تريدون مني؟ أجبني

قهقه عاليا وهو يقول:

- لم نفعل له شيئا لكنّه جاء بأقدامه نحونا، أتعتقدين أنّك اكتشفت أمري مع عائشة؟ لا يا عزيزتي فقد تعمّدت الأمر كي أحضرك إلى هنا.

قلبي سيتوقّف بعد لحظات إن لم يتوقّف هذا النذل عن الكلام الفارغ، نظرت له بتحدٍّ

- أين زوجي؟

- المقابل حبيبتي المقابل

- ماذا تريد؟

قال بعدما نظر نحو أراضٍ قريبة شاسعة قريبة:

- أنت أقرب شخص إلى السيّد الطّاهر محمد مالك حسب معرفتنا

- أكمل

- أنت أهمّ شخص بالنسبة لنا لنحقّق مبتغانا

قلت له وشرارة الغضب تتدفّق بين عيني:

- ماذا تريدون؟

- نريد كل أوراق شركة عمّك، نحن نريد شخصا يثق به

نستطيع من خلاله تدميره والحصول على كل أملاكه

انتفضت:

- مستحيل

رفع كتفيه ودفعني برفق إلى الوراء وقال قبل أن يغلق المرآب:

- شرف أختك وحياة زوجك بين يديَّ

لم أملك القوّة حتّى لأردّ عليه، ركبت السّيارة وتوجّهت نحو المنزل الذّي اشتراه مصطفى قبل رحيله، دخلته وأنا أنظر إلى تفاصيله وأتذكّر حديثنا عن كل جزء عليه وعن مشترياتنا التّي ستجعل منه أجمل بيت زوجيّة، سقطت بجسدي على الأرض الوسخة، احتضنتها وأنا أبكي بقوّة

- أنا آسفة يا مصطفى، أنا آسفة... الأمر فوق يدي لا يمكنني... لا... لا يمكنني.

نمت وأنا أردّد تلك الكلمات غير قادرة على استيعاب ما حدث وما سيحدث، بعد مدّة استيقظت على صوت أولاد الجيران يلعبون أمام نافذة الغرفة التّي فقدت فيها وعيي، جمعت شتاتي وخرجت بعدما أحكمت إغلاق منزلي، كان منظري يرثى له بحيث جعلت أولاد الجيران مرتعبين هاربين

منّي ظنّا منهم أنّني عفريت خرج من منزل لم يسكنه شخص منذ عامين، توجّهت نحو أهم شخص أثق به وهو صفاء كي أغيّر ثيابي التّي اتّسخت وأستحمّ من الدموع التّي امتزجت بالغبار الذّي غطّى جسدي كلّه.

لم تبدِ صفاء أيّ ردّة فعل من ردود الفعل التّي اعتادت أن تقصفني بها، احتضنتني بقوّة دون حتّى أن تسأل عن سبب حالتي، الأن فهمت ما معنى كلماتها التّي وجّهتها لي قبل ثماني سنوات، حتّى والدتها لم تبد أي قلق أو انفعال، هذه هي الصّداقة حقّا يا صفاء... أن أفهمك دون حتّى أن أسألك... حقّا الصّداقة أعمق بكثير كما علّمتني.

دلّتني على الحمام وقدّمت لي ثيابها ومسحت على رأسي وقالت:

- أنا معك... تذكّري ذلك

صفاء الآن مديرة في إحدى شركات والدها، صحيح أنّنا درسنا في الخارج لكن الرجوع إلى الوطن كان ضمن أولوياتنا منذ البداية، أردنا تغيير الجزائر ولو بواحد بالمئة.

استحممت وغيّرت ثيابي بسرعة، خرجت إلى البهو الكبير منهارة القوى، وجدت صفاء تنتظرني حاملة بين يديها كأس

عصيرٍ طازج وهي تبتسم، نظرت متفقّدة المكان

- ألم يعد عمّي مجيد؟

- لا لم يعد بعد

- أرجوك صفاء... لا أريد له أن يراني بهذه الحالة فيخبر عمّي الطّاهر

أمسكت يدها وقلت:

- صفاء... عمّي الطّاهر لا يجب أن يعرف مفهوم؟

أجابت بحركة خفيفة بعينيها، شربت العصير بسرعة كي لا أُغضب أمّ صفاء.

- صفاء سأتّصل بك لاحقا، أعلم أن بال أمّي مشغول الآن

صفاء تكتفي بالحركات هذه الأيام، ربّما اعتادت على مشاكلي ومغامراتي وتمرّدي، ودّعتهما بعدما شكرتهما، كانت السّاعة تشير إلى السّادسة مساءً حينما وصلت إلى المنزل، وجدت أمي في الحديقة تنتظر على أحرّ من الجمر

- أمّي لم أنت هنا؟ الجوّ بارد

قالت بعدما احتضنتني:

- أين كنت؟ قلقنا عليك

قلت مستغربة:

- من؟

- لقد اتّصلوا من المكتب يبحثون عنك لأنّ هاتفك كان مغلقا

ابتسمت لأطمئنها

- كان لي عمل مهم لم أشأ أن يزعجني شخص... يمكنك الاتّصال بصفاء إن أردت التأكّد.

أعلم أن أمّي على وشك أن تكتشف أسراري من أبي إلى رحيلنا إلى مصطفى وعمّي الطّاهر...

لماذا؟

لماذا؟

لماذا؟ لماذا؟ يحدث لي كلّ هذا

على قدر ما أحاول تجاهل ما يحدث، لكنّني أكتشف في كلّ مرّة أنّني خلقت لأعذّب من طرف البشر الأنذال... لم أذق يوما طعم السعادة بسببهم، كلّ ما عانيته بسببهم في الماضي كوّن لي شخصية صعبة غير لبقة، عشت حياتي بين القذف وبين قصص وسيناريوهات مركّبة عليّ محاولين خلق الشّك والكره والبعد بيني وبين والدي.

والعائلة

آه من العائلة

كم حاول أفراد عائلتي من قريب أو من بعيد، أقرباء أمّي أو أقرباء أبي تحطيمي وتحطيم فؤاد أمّي معي... كلّهم أنذال... لا أحد يحبّك مثلما يدّعي، أذكر أنّهم كانوا يعتبرون ولادة البنات عيباً وعاراً على أمهم... بالنسبة لهم، أمّ البنات هي امرأة منحوسة لا فائدة منها، كم عانت أمّي من كلامهم الفارغ اليومي الذّي لا ينقطع عنها وعنّي وعن عائشة...

أريد تقديم شكري الحار إليهم

أقرباء أبي

أقرباء أمّي

صديقاتي الخائنات العقارب

لولا ضغطكم لما أنا هنا، أتعلمون أنّني أحبّ التّحدّي... أحبّ تحدّي هذا المستنقع النجس صغيره وكبيره، لولا التّحدي الذّي فرضته على نفسي تجاهكم لما أصبحت سيدة أعمال محترمة، لما أنقذت أمّي، لما أنقذت أختي، لما سافرت مدّة ثماني سنوات خارج البلاد للدراسة والرّجوع أقوى، لما تعرّفت بشخص قويّ كمصطفى ولما تعلّمت منه خبرة الحياة.

لقد تغيّرت كثيراً...

لم أعد تلك الصغيرة الضعيفة التّي أفرطتم في استغلالها... كلّه كان توفيق الله عزّ وجلّ لي في كل خطوة خطوتها نحو هدفي... نحو تحديكم... نحو إرضاء قلب أمّي...

قلب أمّي الآن على ما يرام، أظنّ أنّها أسعد مخلوق وهي تراني أحقّق نجاحاً بعد الآخر... لا أريد كسره مجدّدا بتوريطها في مشاكلي الجديدة التّي حطّمت قلبي...

أصبح الكذب عادة يوميّة أمارسها مع أمّي من أجل صحّتها، ومن أجل شباب عائشة وحياتها وشرفها.

دخلت مع أمّي البيت وقلبي يخفق على عائشة محاولة إيجاد فرصة للتحدّث معها بمفردنا, تناولنا العشاء على مائدة واحدة دون أن أبعد نظري عن أختي، جعلتها تشكّ في أمرها كثيرا، اعتذرَت وغادَرت نحو غرفتها مدّعيةً أنّها تناولت البيزا مع صديقتها بعد دوام الدّراسة هذا ما جعلني أشكّ في أنّها ستقوم بمكالمة شخصيّة، قمت بمناداتها كي ترجع وتنتظر حتى نكمل الطّعام لتجليَ الصّحون، لم تعارض وبقيت جالسة على أوتارها تتفقّد هاتفها تارة وتنظر إليّ تارة، طلبت منها جلي الصّحون وانتظاري في غرفتها بعدما أنهينا الطّعام، مدّعية أنّني سأريها أفضل الجامعات في العالم أمام أمّي

بحكم أنّها تلميذة في القسم النّهائي.

حملت هاتفي وحاسوبي المحمول ومسجّل صوت واتّجهت نحو المطبخ كي أتفقّدها

- عائشة اتبعيني نحو غرفتك بهدوء، أمّي قد نامت

تبعتني وهي تنظر نحو هاتفها

- لن يتّصل

قلتها وأنا أفتح باب غرفتها

- من؟ من هو؟

- أحمد لن يتّصل

سقط الهاتف من بين يديها وهي تغلق الباب وتقول:

- من أخبرك بهذا يا هدى؟

قلت بهدوء:

- اجلسي مقابل الحاسوب

ضغطت على زر الإشغال فظهرت صورته مع فتاة أخرى، ثمّ بدأت الصور بالتّتابع من سنّ مراهقته إلى الآن، ثمّ قدّمت لها كلّ جرائمه مع والده وعدد المرّات التّي دخل فيها السّجن وحتّى وزنه وطوله وكلّ ما قد يتعلّق به... توقّفت عن الحديث حينما نزلت دموع عائشة بغزارة على خدّها وقالت:

- لكنّني أحبّه

أحسست بضغط قبضة على قلبي حينما سمعت ذلك

- عائشة حبيبتي، لو وجدت أنّه قابل للتغيير لما فطمت قلبك منه والله أنا أعتذر حبيبة قلبي

ثمّ غرق وجهها في الدّموع وهي تشكي لي وتقصّ لي قصتها من بدايتها

- هدى... هذا تمّ في العام الذّي قدمت فيه إلى الجزائر بعد فقد مصطفى بأيام، كنت أعيش ضغطاً كبيراً نصفه من أبي الذّي لا أذكره جيّدا والآخر من مصطفى لقد اعتدت على حنانه واهتمامه بعائلتنا وبكلّ شيء يتعلّق به، فجأة وجدت أحمد يضحك ويلوّن الحياة بابتسامته وبصفاء قلبه... سرعان ما وقعت في حبّه لكنّني لم أخبره أبدا كما علّمتني من قبل، لكن قبل شهرين تطوّرت علاقتنا باعترافه تلاه اعترافي الذّي أصبح جمرة في يدي لم أستطع المحافظة عليه.

تابعت كلامها نقطة بنقطة ثمّ قدّمت لها التّسجيل الصّوتي وهو يهدّدني بشرفها وحياة مصطفى. استمعت إلى الأخير ثمّ انتفضت تصرخ هنا وهناك وهي تقول:

- حقير...رخيص

لـولا إمسـاكي لفمهـا بقـوّة لاسـتيقظت أمّـي ولفشـلت كلّ خططـي، هـدّأت مـن روعهـا وأمسـكت وجههـا بيـن يـدي وقلـت لهـا:

- عائشة هل تساعدينني في البحث عن مصطفى؟

قالت وهي تبكي:

- أخـي مصطفـى... كـم اشـتقت إليـك... أنـا أعتـذر يـا أختـي لأنّني اعتبرتـك مجنونـة حينمـا بقيـت تردّديـن أنّـه لا يـزال علـى قيـد الحيـاة فـي مـكان مـا فـي هـذا العالـم

ثمّ أضافت:

- لـم أكـن أعلـم أنّ النـذل أحمـد يسـتغلني للوصـول إليـك وإلـى عمّـي الطّاهـر... أختـي أنـا معـك مـن اليـوم فصاعـدا

احتضنتها وأنا أذرف دموع اشتياق لزوج قد ذهب ولم يعد...

اسـتأذنت عائشـة لأتّصـل بصفـاء وأقـصّ عليهـا كلّ مـا حـدث ولأعـرض عليهـا مسـاعدتي، لـم ترجعنـي يومـاً تلـك الحقيـرة صديقتـي وأختـي الثانيـة.

كنـت جـدّ خائفـة مـن الخطّـة التّـي رسـمتها كـي أجـد مصطفـى وأتخلّـص مـن الأوغـاد لأنّنـي سـألعب لعبـة خطيـرة مـع عـدوّ محتـرف، كان التوتّـر يتغلغـل فـي عروقـي مـن شـدّة التّفكيـر

بالأمر، ما كان يخيفني أكثر هو أنّني سأستخدم عائشة كطعم لهم كي أجد مخبأهم، كنت مستعدّة للتّضحية بنفسي من أجل أن أرى زوجي للمرّة الأخيرة في حياتي وأحدّثه عن كل ما حدث لي في غيابه، عن حجم المعاناة وعن الحزن الذّي عشته بسبب غيابه الذّي طال كثيراً.

أحمد ووالده عصابة خطيرة جدّا ولكي أهزمهم يجب أن أستعمل حيلة محكمة مدبّرة، الوقت يداهمني لكنّه قصير جدّا لمبتدئة تريد اللّعب والفوز في أقصر وقت ممكن، لطالما آمنت أنّ الضّغط هو الوسيلة الأنجح في حياتي للنّجاح، كلّما زاد الضّغط على قلبي كلّما تعلّمت الأمور بسهولة وبسرعة غير واقعيّة.

بتّ اللّيل أفكّر في حلٍّ ما دون الخروج بنتيجة مرضية، كنت أغيّر تعابير وجهي أمام أمّي كثيرا كي لا تشكّ بي، كما أنّني أوصيت عائشة بذلك أيضا خوفا من ضغط أمّي لها في غيابي، حدّثتها عن خطورة الموضوع وعن إمكانية توقّف دقّات قلبها إن علمت به.

خرجت من البيت وأنا أتحدّث على الهاتف مع مدير وكالة البيع، أمرته أن يؤجّل بيع منزلنا شهراً آخرا لأنّ زمام الأمور

قد تغيّر الآن وأصبح مكوثي هنا لشهر آخر جدّ ضروري، ثمّ تحدّثت مع المكتب وأخبرتهم أنّني سأغيب أسبوعا عن العمل، لولا ثقتي في الموظّفين الذّين اخترتهم بنفسي لما كنت سأغيب هكذا مدّة.

فجأة رنّ هاتفي

- ألو...؟

جاء صوت من الطّرف الآخر سمّر رجليَّ

- لِم لَمْ تأتي بعد؟

قلت كمن يعتذر عن نسيان موعد مهم هكذا

- أنا أعتذر...أنا مشغولة قليلا، لم أستطع المجيء حسب موعدنا، ولن أستطيع المجيء اليوم.

لم يتغيّر صوته أبداً رغم تقدّمه في السّن، قال كمن يهدّئ الأوضاع:

- سيعرض عليك السّيد محمّد توفيق غداءً لذيذا

أجبت بعد تفكير عميق:

- حسنا...سأحاول المجيء في الموعد

أغلق السّماعة بعدما أحسّ بقبول عرضه من خلال نبرة صوتي. توجّهت نحو موعد يسابقني إليه الزّمن، لم أكن أعلم

هل كان يجب عليّ الرّفض أم القبول؟ هل تضييع وقت مع والدي كان سيكون سببا في عدم إيجاده؟ هل أفرّط في واجبي نحوه؟ ألم أقم بالواجب على أكمل وجه؟

توجّهت إلى أقرب مطعم بعدما اتّصلت بأبي كي أدلّه على العنوان، دخلت مثقلة الجسد إلى مكان بسيط جميل لا يخلو من الضوضاء والضّجيج العاميّ الذّي يرافقك في كلّ الأماكن العامّة، اخترت طاولة منعزلة عن الأجواء العائليّة التّي أحسد ناسها كثيرا، جلست بالقرب من نافذة تطلّ على المتوسّط الذّي وددت أن أحدّثه بقدر عدد جزيئات الهيدروجين التّي يحتضنها.

لكزني بمرفقه بعدما حيّاني ثمّ جلس أمامي وهو يبتسم بحنان

- كيف حال أميرتي؟

تفاجأت من تصرّفاته وانعكس ذلك على وجهي ممّا جعله يغيّر كلامه

- صباح الخير سيّدة هدى توفيق

رسمت ابتسامة شاحبة على وجهي المصّفر وقلت:

- صباح الخير سيّد محمّد توفيق

قال كمن يعاتب صغيرته:

- أنت تحرميننني منك يا هدى

بسطت نظري بعيداً وقلت بجديّة:

- أنت حرمتني من هذا الجوّ يا أبي

ثمّ أشرت إلى العائلات، طأطأ رأسه كالمحتضر الذّي أفنى عمره بين شهوات الدّنيا.

لو لم يتقدّم النّادل نحو طاولتنا ليقطع السّكون لما تواصل حديثنا

- سيدتي ماذا تطلبين؟

ابتسمت للمراهق الذّي يبادلني الابتسام وطلبت منه أن يحضر لي سلطة وحساء الخضراوات وعصير البرتقال. أمّا عنه فقد قال:

- أحضر لي مثل ما طلبت السيّدة

نظرت إليه بحزن بعدما غادر الفتى وقد أحسست بأنّني سأضعف أمامه، فاتحة ثغري والدّموع تسيل على خدّي

- لم تركتنا يا أبي؟ لم لَم تسأل عنّا ولو ليوم واحد طيلة ثماني سنوات... لم نطلب منك إرسال النّقود ولا دفع الفواتير وإنّما كنّا بحاجة دعم معنوي منك

وضع ظهر كفّه على عينيه وقال:

- إنّه الحبّ يا هدى... أعتذر لك ولأمّك ولعائشة الصّغيرة لكنّني وعدت هدى قبل أن أتزوّج أمّك ووفيت بوعدي بالرّغم من أنّه كان متأخّراً. أنا أعشقها وأعشق كلّ تفاصيلها والدّليل على ذلك هو أنّني لم أسأم منها لحدّ اليوم بالرّغم من أنّ جيوش الشيخوخة غزت وجهها بكلّ تفاصيله ولازلت أعشقها.

استدار إلى الوراء كي يخفي دمعته

- ذلك لا يمنعك من الاتّصال بي

- لقد غطّى الحبّ عينيَّ يا هدى... أرجوك لا تلومينِي

قلت وأنا أذرف دموعا:

- تحملناك أنا وأمّي بكلّ ما فيك من عيوب، أردنا فقط عائلة مستقرّة، لكّننا لم نعش معك يوما مستقرّا واحِداً.. أبي أتعلم كم من مرّة تحمّلت إهانتك لأمّي؟

قاطعني:

- أرجوك يا حبيبتي أنا نادم لا تحدثيني عن الماضي

قلت كمن لم يسمع:

- تحمّلت نعتك لي بالفاشلة وبالعاطلة وبالعبء على ظهر أمّي... لم أرْضِك يوماً... لم يرضك مستواي يوماً... هل

أرضيك الآن؟

قال وهو يذرف الدّموع:

- توقّفي أرجوك...أنا أحبك يا هدى كثيراً... أنا فخور بك... لا توجد في نظري فتاة أقوى منك

غطيت وجهي بيدي عندما أنذر النادل وصول الطّعام كي لا يرى دموعي. تناولنا الغداء بسرعة دون أن ينظر الواحد منّا إلى الآخر ثمّ انتقلنا إلى مقهى مجاورة، جلسنا على أوّل طاولة لنكمل سيرورة الحديث.

كان أوّل ما كسرت به الصّمت

- حدّثني عن هدى

انتفض قائلاً

- هدى؟

أشرت إيجابا... ممَّا جعله يهدّئ من روعه قليلا ويخفض من صوته، كأنّه يستعدّ لانطلاقة صعبة تلخّص قصّة حبّه التّي دامت أكثر من ثلاثين عاما بين حبٍّ وحربٍ.

- هدى تشبهك بكلّ تفاصيلك

رفعت حاجبَّي دهشة:

- هي إنسانة ناجحة وطموحة ذات إرادة قويّة بقوّة كلّ رجال

العالم... قبل وقت طويل يوم تزوّجت وخنت الوعد لم تخمد نار الحبّ لا في قلبها ولا في قلبي، لم أتحمّل الأمر، رجعت لها محطّما وما باليد حيلة في عصيان الوالدين، رحلت بعيدا لتبني حياة جديدة كما اعتقدت، ترقّت ثمّ تحصّلت على بيت وسيارة وكل متطلّبات الحياة، لكنّها فاجأتني حينما طلبت مني الذهاب وأنا الذّي اعتقدت أنّها نسيت الماضي ونسيت قصّتنا، حينما رحلت عنّي وتركتني أحتضر في حياة لا ألتمس فيها جزءاً بسيطاً من السّعادة، لكنّني علمت لاحِقاً أنّنا خُلقنا كي نكون لبعضنا البعض. اتّصلت بي في صباحٍ ممطر أخبرتني أنّها قد دبّرت كلّ ما يلزم لسفري واللّحاق بها إلى الخارج، كانت تنتظر موافقتي على أحرّ من الجمر.

ثمّ أضاف:

- عجزت عن تخييب أملها مرّة أخرى، فأنا أحبّها يا هدى...

قاطعتُه:

- ما ذنبي أنا؟

قال لي وهو يمسح على شعري:

- إنّه القدر يا غاليتي... ثمّ إنّني فخور بك كثيرا، خذي الأمر من الجانب الإيجابي

نظر بعيدا إلى فتاة تتسوّل

- لو أنّني بقيت معكم لما أصبحت على ما أنت عليه، فأنا أب سيّء، لو بقيت معكم كنت سأثبّطك وأقف في طريقك ولكنتِ مثلها الآن...

توقّف عن الكلام حين رنّ هاتفي، ظهر رقم عائشة على شاشتي ممّا جعلني أشّك قليلا في أنّ أمراً ما قد حدث، فليس من عادة عائشة أن تتّصل بي في وقت دوام الدّراسة

- ألو!

سمعت صراخ أمّي وعائشة يدوّي المكان، حاولت تملّك أعصابي أمام والدي وقلت:

- ألو نعم عائشة

قال قبل أن يقطع الخطّ:

- لقد بدأت المعركة للتوّ يا سيّدة هدى توفيق

أوقعت هاتفي وركضت نحو المجهول دون حقيبة أو حتّى نقود ما يكفي لركوب حافلة، كدت أفقد صوابي لولا لحاق أبي بي وتهدئتي ومحاولة فهم الحادثة، أمسك بي على قارعة الطّريق واحتضنني وهو يقول:

- لا بأس حبيبتي أنا معك...لا تخافي

قلت وأنا أحتضنه:

- عائشة...أمّي...

ضغط عليّ أكثر وهو يقول:

- ماذا حدث لهما؟ ماذا حدث؟

أشرت إلى التاكسي وأنا أقول:

- لا يجب أن نضيّع وقتا...هم سيقتلون عائشة وأمّي

كنت أرى أبي يحاول تملّك أعصابه وهو يركب في الأمام، بعد هنيهة وصلنا أمام حديقة منزلنا التّي لم يزرها أبي منذ عشر سنوات مضت، تقدّمت بجسد متثاقل والكحل يسيل على خدّي حينما رأيت منظر بقايا سطو منزل، فهناك مجموعة من رجال البوليس يحقّقون حول القضيّة مع الجيران وهناك رجال الحماية المدنيّة يقاومون النّار التّي جعلت منزلي رماداً، تقدّمت إلى رئيس البوليس وأنا أصرخ:

- لم تموتا؟ أليس كذلك؟

ربت على كتفي وقال:

- لقد تم نقلهما إلى المستشفى الجامعي الكبير على آخر نفس

استدرت نحو أبي واضعة يدي فوق قلبي رافعة رأسي

نحو السّماء أردّد كلمات شكر لله، تسارعت خطواتي نحو أبي، انتهى بي الأمر أحتضنه وأنا أردّد:

- تعبت يا والدي تعبت...أريد عيش حياة عادية

طلب تاكسي وتقّدّم بي بحنان نحوه لنركب وننطلق نحو المستشفى.

كان آخر ما تذكّرته قبل أن أفقد الوعي هو صورة أمّي بجانب عائشة مستلقيتان فوق سرير أبيض لطالما خشيت تلك الغرفة، وخشيت من يدخلها.

استيقظت على صوت الطّبيب وهو يقول لي:

- سيّدة هدى...استيقظي

فتحت عينيَّ بصعوبة وأنا أقول:

- أين أنا؟

ابتسم وقال:

- إن السيّد أحمد يبلّغك سلاما حارّا ويهنّئك على حظّ عائلتك

انتفضت وأنا أصرخ:

- حقير...أخرج من هنا... إياك والاقتراب منهما

وقفت بصعوبة وأنا أشير بإصبعي نحو عينيه:

- إياك واللّعب معي بالنّار... أنت لا تعلم كم حجم القوّة المخبّئة في صدري

ضحك باستفزاز لحالتي المزرية وخرج بلامبالاة، دخل خالد وعمّي الظّاهر وأبي وعلامات القلق بادية على وجوههم

- ما بك يا هدى؟ لم تصرخين؟

كسر عمّي الظّاهر الصّمت:

قلت وأنا أجلس فوق السّرير

- لا شيء...كنت أنبّهه على عائشة وأمّي وعلى ضرورة الاعتناء بهما

قال خالد:

-لقد تبيّن من خلال التّحقيق أنّه حادث بسبب أسلاك الكهرباء

تمتمت

- هكذا إذا

- ماذا؟

- لا شيء خالد أنا تعبة أريد أن أنام قليلا

أوقفني أبي

- حالة عائشة وأمّك بخير

قلت وأنا أبتسم:

- أنا لم أسأل عنهما لأنّني أعلم أنّهما قوّيتان وأثق بهما... هما لن تتركاني وحدي

خرج الجميع مطأطئي الرؤوس أحسست من خلالها بكذبة أبي الغبيّة، صحيح أنّ حالتهما خطيرة لكن هناك إحساس في قلبي يقول بأنّ القادم أجمل.

خرج الجميع ما عدا أبي بقي يحدّق بي نظرات فضول

- هدى أخبريني الحقيقة

- أيّ حقيقة أبي؟

- مع من أنت متورّطة؟

خانتني قوّتي حينما استلقيت وأنا أقول:

- آه يا أبي...إنهم خطرون جدّا

كاد يفقد أعصابه

- من هم؟ أخبريني؟ سأقطّعهم أشلاءً

- لا يا أبي الأمر ليس بهذه السّهولة

قال وهو يمسك ذراعيّ بقوّة:

- هدى لن أسامحك إن لم تخبريني بالحقيقة

ذرفت دمعة وقلت له:

- الأمر معقّد، يجب أن أضحّي بنفسي من أجلكم ومن أجل مصطفى

صرخ عليّ بوحشيّة:

- لن تتحرّكي إلى أي مكان سأراقبك... أنت متهوّرة... لا زلت كما ربيتك

لم تحرّك فيّ كلمات أبي شيئاً لأنّني كنت قد اتّخذت قراري وحسمت الأمر.

تفقّدت هاتفي الذّي كان موضوعا تحت وسادتي، أخفيته حينما استيقظت احتياطاً لأي أمر قد يحدث ويُسلب منّي. سجّلت آخر رقم واتّصلت

- ألو

- مرحبا بالجميلة الضّعيفة

قلت بتحدٍّ

- أين سنلتقي؟

قهقه عاليا

- واو... جميلتي متسرّعة كثيراً

أغلقت الهاتف في وجهه وبعثت له عنوان محل تجاري كبير في رسالة نصيّة. كان من الصّعب عليّ الخروج من

الغرفة، بعد بحث دقيق في الغرفة وجدت لباس ممرّضة موضوعاً في الخزانة، غيّرت ملابسي بسرعة وخرجت دون أن يدري أحد بالأمر، من فرط ما تابعت أفلام المغامرات والبوليس أصبحت أمور التسلّل والهروب والتحدّي سهلة بالنسبة لي، كنت مشهور في الجامعة بموسوعة الأفلام المتنقّلة.

دخلت المحّل متفقّدة الصفوف التّي توضع عليها المنتجات الغذائيّة عادة، والمراحيض والبوابات الكبيرة لكنّني لم أجد له أثرا، فجأة لمحته من بعيد يشير إليّ وكأنّه يعرفني منذ وقت طويل بأعصاب باردة، تقدّمت نحوه قائلة:

- لم لم تدخل؟

- لن أقع في فخّك أبداً، اتبعيني

قلت وأنا أرجع خطوات إلى الوراء:

- لا لن أتبعك، أنا لا أثق بك

استدار وقال بجديّة:

- نحو مصطفى

آه يا غباء قلبي آه... نقطة ضعفك هي مصطفى... قد يقودك إلى الهاوية لكنّك تجري دائماً وراءه.

قلت بجديّة:

- شرط

- ماهو؟

- سآتي معك الآن بشرط أن تترك عائلتي وشأنها

أشار برأسه إيجابا ثمّ تابع نحو المجهول، تبعته بخطوات سريعة كي لا أضيّعه وسط ذلك الحشد الغفير... استيقظت على أرضية وسخة بين قضبان غرفة لا ضوء فيها، حاولت تمييز ما تحتوي عليه لكنّ الرؤية كانت محجوبة بينما أنا أمرّر نظري حول المكان لمحت عيون شخص... عيون أعرفها... نظرات أعرف صاحبها... إنها نظرات مصطفى.